الرواية الحائزة على جائزة ريد هاوس لكتب الأطفال

مايكل موربورجو

مملكة كِنْسُوكِى

الرسوم بريشة: مايكل فورمان



ترجمة

د. محمد عنانى

مايكل موربورجو

مملكة كِنْسُوكِى

الرسوم بريشة: مايكل فورمان

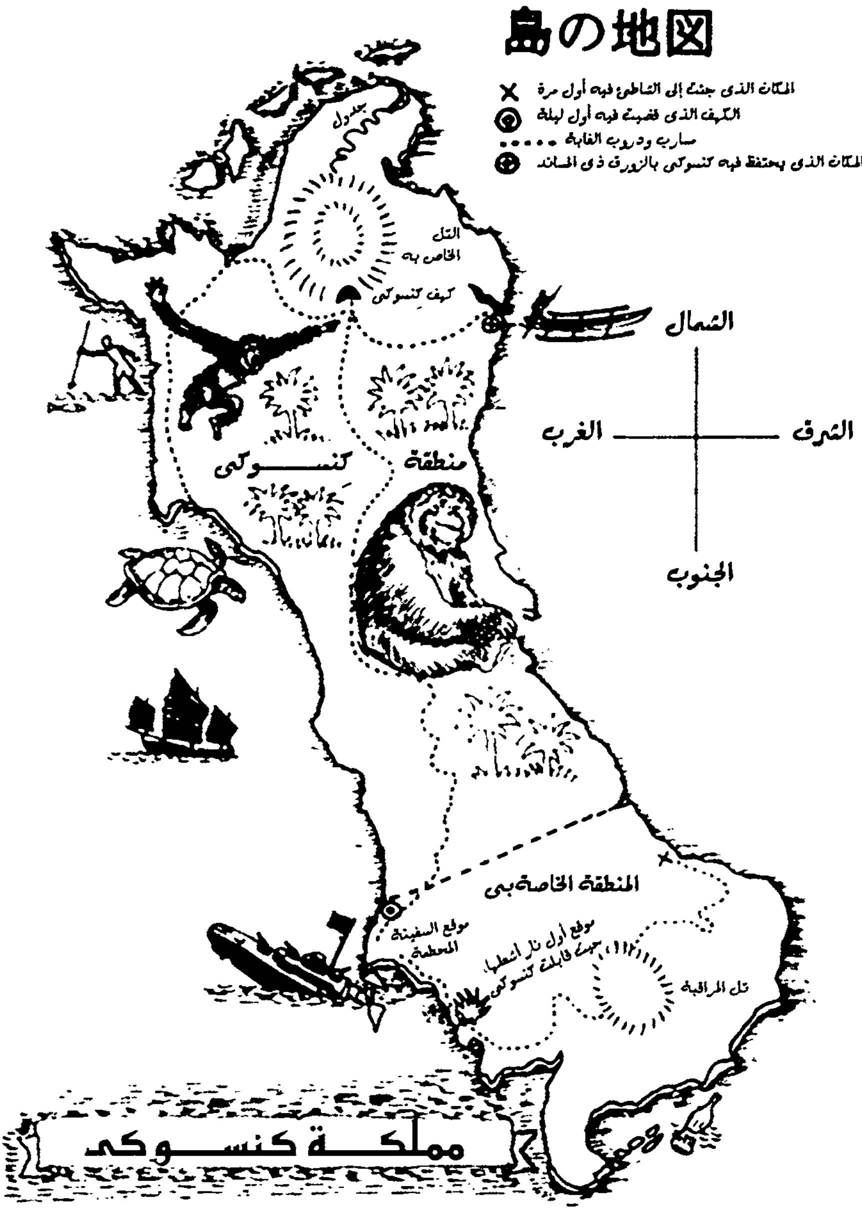
ترجمة

د. محمد عنانى

دار البلسم للنشر والتوزيع

目次

مملكة كِنْسُوكِي


島の地図
المكان الذى جئت إلى الشاطئ فيه أول مرة
الكهف الذى قضيت فيه أول ليلة
مسارب ودروب الغابة
المكان الذى يحتفظ فيه كنسوكي بالزورق ذى المساند
جدول
التل الخاص به
كهف كنسوكي
الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
منطقة كنسوكي
المنطقة الخاصة بي
موقع السفينة المحطمة
موقع أول نار أشعلها، حيث قابلت كنسوكي
تل المراقبة
مملكة كنسوكي

إهــــــداء

إلى جراهام وإيزابيلا

مع الشكر لإيزابيلا هتشنز، وتيرنس بكْلر،
والأستاذ سيجو تونيموتو وأسرته،
لما تعطفوا به من عوْن في إعداد هذا الكتاب

KENSUKE'S KINGDOM

First published in Great Britain 1999 by Egmont UK Ltd.

مـملكة كنسوكى

أصل هذا الكتاب هو المؤلف الإنجليزى

KENSUKE'S KINGDOM

للمؤلف مايكل موربورجو

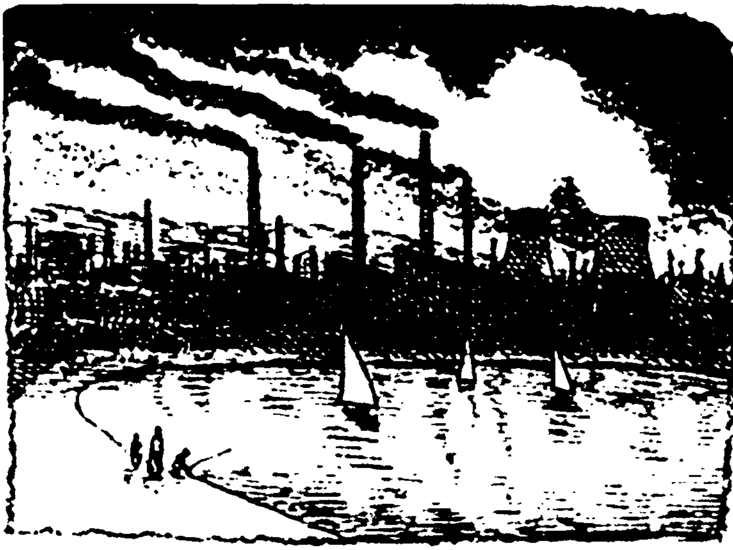
والرسوم بريشة مايكل فورمان

128 شارع النيل - الدقى 12311 - الجيزة - مصر
تليفون: 7627147 (202+)
فاكس: 7627146 (202+)
e-mail: dar@al-balsam.com
www.al-balsam com

رقم الإيداع المحلى: 2007/2122
الترقيم الدولى: 9 - 10 - 6171 - 977 : I S B N

الطبعة الأولى باللغة العربية 2007

الفهرس



الفصل الأول

پيجى سو

اختفيتُ فى الليلة السابقة لعيد ميلادى الثانى عشر، يوم 28 يوليو 1988. ولم أكن أستطيع قبل الآن أن أروى تلك القصة العجيبة، وها أنذا أرويها أخيرًا - القصة الحقيقية. كان كنسوكى قد جعلنى أَعِدُهُ بألَّا أقول شيئًا، بل لا شىء على الإطلاق، قبل مرور عشر سنوات على الأقل. ويكاد يكون ذلك آخر ما قاله لى، وما دُمْتُ وَعَدْتُه، فقد اضْطُرِرْتُ أن أعيش فى أكذوبة، وتمكنتُ من الكتمان والحفاظ على أكذوبتى فترة ما، لكنه قد انقضى ما يزيد الآن على

عشر سنوات، انتهيتُ فيها من الدراسة فى المدرسة والجامعة، وتسنَّى لى الوقتُ اللازمُ للتفكير. وهكذا، فمن حق أسرتى وأصدقائى الذين خَدَعْتُهم فترةً طويلة أن أخبرهم بحقيقة اختفائى الطويل، وكيف عشت حتى أُتيح لى أن أعود من دنيا الأموات.

ولكنَّ لدىَّ سببًا آخر يدفعنى إلى الكلام الآن، وهو سبب أفضل من ذلك كثيرًا، إذ إن كنسوكى كان رجلاً عظيمًا، كريمَ الخُلق، وكان صديقًا لى، وأريد أن يعرِفَه العالم مثلما عَرَفْتُه.

كانت الحياة تسير على منوالها الطبيعى حتى بلغت عامِىَ الحادى عشر تقريبًا، وحتى وَصَلَنا الخطاب. كنا أربعةً يعيشون فى المنزل: والدتى، ووالدى، وأنا، وستلاَّ أرتسوا، كلبة الرعى ذات اللونين الأبيض والأسود، وكانت لها أُذُنٌ تتدلَّى والأخرى منتصبة، وكانت دائمًا تعرف، فيما يبدو، ما يوشك أن يحدث قبل حدوثه، ولكن ستلاَّ نفسها لم تكن تستطيع أن تتنبأ بقدرة ذلك الخطاب على تغيير مسار حياتنا إلى الأبد.

وأنا أتذكر الآن أن فترة طفولتى الأولى كانت منتظمة وتسير على وتيرة واحدة. فأنا أقطع الطريق كل صباح إلى

المدرسة، وكان والدى يسميها "مدرسة القرود" لأنه كان يقول إن الأطفال فيها يصيحون ويصرخون ويتعلقون فى أوضاع مقلوبة بجهاز التسلق مثل القرود فى الفناء. وكان ينادينى دائمًا "بالقرد" عندما يريد السخرية والملاعبة، وكثيرًا ما كان كذلك. وأما اسم المدرسة الحقيقى فهو مدرسة سانت چوزيف، وكنت سعيدًا فيها، أو فى أغلب الأحيان على أية حال. فبعد انتهاء الدراسة كل يوم، ومهما تكن حالة الجو، كنت أنطلق إلى الملعب لألعب كرة القدم مع إدى دُودْزْ، أفضل صديق لى فى الدنيا، ومع مَطْ وبوبى والآخرين. كانت أرض الملعب يكسوها الطين، فإذا حاولتَ تمريرَ الكرة وَقَفَتْ والتصَقَتْ بالوحل. كان لدينا فريقُنا، الذى أسميناه "مَدْلاركس"، ومعناه اللاعبون فى الطين، وكنا فريقًا قديرًا. وكانت الفرق الزائرة تتوقع – لسبب ما – أن تَرْتَدَّ الكرة حين تصطدم بالأرض، وإلى أن تدرك أنها لن ترتد، نكون نحن قد تفوقنا عليهم بهدفين أو ثلاثة أهداف فى حالات كثيرة. أما إذا لعبنا مباريات خارج ملعبنا فلم نكن بنفس المهارة.

وفى عطلة نهاية الأسبوع كنت أقوم بتوزيع الصحف على المنازل، لحساب المستر پاتل، صاحب الدكان على ناصية شارعنا. وكنت أَدَّخِرُ أَجْرى لشراء دراجة تسلُّق، أى

إننى كنت أريد أن أركب الدراجة فى الطرق الصاعدة فى المروج من حولنا مع إدى، ولكن المشكلة هى أننى كنت دائمًا أنفق ما ادَّخَرْتُه، ومازلت كذلك.

أما أيام الأحد، فكانت دائمًا مناسبات خاصة، حسبما أذكر، إذ كنا نُبحر جميعًا فى زورق شراعى صغير فى مياه الخزان، وكانت ستلا أرتوا تنبح نباحًا شديدًا للزوارق الأخرى كأنما لم يكن من حقها الإبحار أيضًا. وكان أبى يحب ذلك، كما يقول، لصفاء الجو ونقاء الهواء وخلائه من تراب الطوب، فقد كان يعمل آنذاك فى مصنع الطوب القريب. وكان يتمتع بمهارات يدوية عالية ومولعًا بالعمل اليدوى، وكان يستطيع إصلاح أى شىء، حتى لو لم يكن بحاجة إلى الإصلاح. وهكذا كان يشعر فى الزورق أنه فى مكانه الطبيعى. وكانت والدتى تعمل نصف الوقت فى المكتب بمصنع الطوب نفسه، وكانت تستمتع كثيرًا برحلة الزورق. وأذكر أننى شاهَدْتُها ذات يوم جالسةً عند ذراع الدَّفَّة، وقد مدت رأسها إلى الخلف أمام الريح وأخذت نَفَسًا عميقًا ثم هتفت "هذا هو الصواب! هذا هو ما ينبغى أن تكون الحياة عليه! رائعة! رائعة فعلاً." كانت دائمًا ترتدى القبعة الزرقاء. كانت رُبَّان السفينة الذى لا خلاَفَ عليه. فإذا كان النسيم يَهُبُّ من أيَّة جهة، وَجَدَتْ هذه الجهة وحاولت استغلال النسيم. كانت تتمتع باستعداد فطرى لذلك.

كم قضينا من أيام سعيدة على سطح الـماء! كنا نخرج والـجـو عاصـف، عنـدما يُحْـجِـمُ الآخـرون عن الـخـروج، وننطلـق متـواثبين فوق الأمـواج، مستـمتعين بسرعة الزورق، ولَذَّةِ الانطلاق الـخالصة. وحتى عند سكون الهواء، لم نكن نكترث لذلك. وأحيانًا كنا الزورق الوحيد فوق مياه الـخزان. وعندها نـجلس وحَسْب ونشرع فى صيد الأسماك. وأقول بالـمناسبة إننى كنتُ أبرعَ من أمّى وأبى فى الصيد، وكانت ستلا أرتوا تقبع خلفنا فى الزورق، وقد بدا عليها الـمَلَلُ من ذلك كله، لأنها لا تـجد شيئًا تنبحه.

ثم وصل الـخطاب. التقطَتْه ستلا أرتوا من فتحة الـخطابات فى الباب وكادت تـمـزقه، فقد كانت به ثقوب من أنيابها، وكان مبتلاًّ، لكننا استطعنا قراءته. كان الـخطاب يقول إن مصنع الطوب سوف يُغْلَق، وإن أبى وأمى فقدا وظيفتيهما.

كان الصمـتُ الرهيـبُ يسـودُ مائـدةَ الإفطار فى ذلك الصباح. وبعدها توقفنا تـمامًا عن الإبحار فى أيام الأحد. ولم يكن لدىَّ ما يدعونى إلى السؤال عن السبب. وحاول والدى ووالدتى الـحصول على وظائف أخرى، لكنه لم تكن هناك أية وظائف خالية.

وسـاد الـمنـزلَ إحسـاسٌ بالكآبـة والبؤس. كنت أحيـانًا أعود إلى الـمنزل فأجدهما يلتزمان الصمت. كانا يتـجادلان

كثيرًا، وحول أشياء صغيرة تافهة، ولم يكن هذا عهدهما من قبل على الإطلاق. وتوقف والدى عن إصلاح الأشياء فى المنزل. بل ونادرًا ما كان يمكث فى المنزل على أية حال، فإذا لم يكن يبحث عن عمل، فهو فى المشرب القريب. وكان عندما يعود إلى المنزل يجلس صامتًا وهو يتصفح أعدادًا لا تنتهى من مجلات الإبحار فى اليخوت الشراعية.

كنت أحاول قدر طاقتى ألَّا أمكث فى المنزل وأن ألعب كرة القدم، ولكن إدى كان قد انتقل من مسكنه لأن أباه وجد عملاً آخر فى مكان ما فى الجنوب. ولم يكن لكرة القدم مذاقُها المميز دون وجوده. وانفرط عِقْد فريق "مَدْلارْكسْ" بل انفرط عقد كل شىء من حولنا.

ثم عدت ذات يوم من أيام السبت بعد جولة توزيع الصحف لأجد والدتى جالسةً فى أسفل السُّلَّم وهى تبكى. كانت دائمًا قوية صُلبة، ولم أشاهدها من قبل فى هذه الحال قط.

قالت: "مغفَّل! أبوك مغفل يا مايكل! هل تسمع؟"

وسألتها: "ماذا فعل؟".

وقالت لى: "لقد ذهب!"، وتصورتُ أنها تعنى أنه ذهب بلا رجعة، لكنها قالت:

"لم يشأ أن يصغى لصوت العقل، لا! بل يقول إنه خطرت له فكرة. لم يخبرنى بها، لكنه يقول فقط إنه باع السيارة، وإننا سوف ننتقل إلى الجنوب، وإنه سوف يجد لنا مسكنًا". وتَنَفَّسْتُ الصُّعَدَاء، بل شعرتُ بالسرور فى الواقع، فلابد أن الإقامة فى الجنوب ستجعلنى أقرب من إدى. وأَرْدَفَتْ قائلة: "إذا كان يظن أننى سوف أترك هذا المنزل، فلابد أن يستعد لمفاجأة! وأؤكد لك!".

وقلت لها: "ولماذا لا نتركه؟ ليس لدينا الكثير هنا".

فقالت: "بل لدينا! لدينا البيت أولاً، ثم جدتك، ثم المدرسة".

وقلت لها: "توجد مدارس أخرى". وإذا بها تحتدم غضبًا، بل زاد غضبها عما عَهِدْتُه فيها فى أى يوم من الأيام.

وقالت: "تريد أن تعرف القشة التى قصمت ظهر البعير؟ إنها أنت يا مايكل! أعنى قيامك بجولة توزيع الصحف هذا الصباح. هل تعرف ما قاله والدك عندها؟ هل تريد أن تعرف؟ سأخبرك! قال لى والدك: "هل تدركين أن هذا هو الأجر الضئيل الوحيد الذى يدخل هذا المنزل، أقصد ما يكسبه مايكل من توزيع الصحف! ماذا تظنين إحساسى إزاء ذلك؟ ابنى فى الحادية عشرة، وهو يعمل وأنا دون عمل"".

وحاوَلَتْ تهدئة نفسها برهة قصيرة قبل أن تواصل حديثها، وقد اغْرَوْرَقَتْ عيناها بالدموع قائلة: "لن أنتقل من هنا يا مايكل. فلقد وُلِدْتُ هنا. لن أذهب مهما يَقُلْ. لن أترك هذا المكان".

كنت فى المنزل حين جاءت المكالمة التليفونية بعد نحو أسبوع. كنت أعرف أن أبى هو المتحدث. لم تقل أمى إلا أقل القليل، ولذلك لم أستطع فهم ما يجرى، وذلك حتى دَعَتْنى إلى الجلوس فيما بعد وأخبرتنى.

قالت أمى: "يدل صوتُه على أنه قد تغير يا مايكل. أعنى أنه عاد إلى طبيعته، بل إلى طبيعته الأولى فى الأيام التى تَعَرَّفْتُ إليه فيها أول الأمر. قال إنه وجد لنا مكانًا نقيم فيه. وأضاف قائلاً: "ما عليكما سوى إعداد حقائبكما والمجىء". اسم المنطقة فيرهام. وهى قريبة من ميناء ساوثامتون. وقال: "إنها تُطلُّ مباشرة على البحر". لقد أحسستُ اختلافًا كبيرًا فيه، وأؤكد لك ذلك".

والواقع أن والدى بدا رجلاً مختلفًا. كان ينتظرنا عندما هبطنا من القطار، وعيناه تبرقان من جديد ويجلجل بالضحكات. ساعَدَنا فى حمل الحقائب وقال: "المكان قريب" وهو يعبث بشعر رأسى. وأضاف: "انتظر حتى تراه أيها القرد! لقد رتَّبْتُ كل شىء، كل شىء! ولن يُجْدِى أن

يحاول أحدكما إثنائى عن عزمى. فأنا مصممٌ عليه".

وسألتُه: "مصمم على ماذا؟".

فقال: "سوف ترى".

وكانت الكلبة ستلا أرتوا تتواثب فى الطريق أمامنا، وقد رفعت ذيلها وبدت عليها السعادة. وأعتقد أننا جميعًا كنا سعداء.

لكننا فى النهاية ركبنا حافلة بسبب ثقل الحقائب الشديد، وعندما غادرنا الحافلة وجدنا أنفسنا على شاطئ البحر مباشرة. ونَظَرْتُ فلم أجد أى منازل من حولنا، لا شىء سوى مَرْسًى لليخوت والسفن الصغيرة.

وسألَتْهُ والدتى: "ماذا نفعل هنا؟"

وأجاب قائلاً: "يوجد من أريد أن تقابلاه، من أصدقائى المقربين، واسمها پيجى سو، وهى تتطلع إلى لقائكما، وقلت لها كل شىء عنكما."

ونَظَرَتْ والدتى إلىَّ مُقَطِّبة الجبين فى حيرة، لكننى لم أكن أعرف أكثر مما تعرفه. ولم أكن متأكدًا إلا من أنه يتعمد الغموض والإلغاز.

وسِرْنا ونحن ننوءُ بِحَمْلِ الحقائب فى الطريق، وطيور النورس تصيح فوق رءوسنا، وأشرعةُ اليخوت الراسية

الـمطوية تُصَفِّقُ حولنا، والكلبة ستلا تثرثر عما يجرى، حتى وقفنا أخيرًا أمام مطلع خشبـىٍّ يؤدِّى إلى يَخْتٍ لونه أزرق أدكن براق. ووضع أبىً الـحقائب على الأرض والتفت إلينا وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

وقال: "ها هى ذى! فلنبدأ التعارف. هذه هى پيجى سو، منزلنا الـجديد. ما رأيكما؟" .

وبدا أن والدتى متـماسكة رغم كل شىء، فلم تَصْرُخْ فى وجهه، بل لزمت الصمت التام، وظلت صامتة طيلة استغراقه فى الشرح ونحن نـحتسى الشاى فى مطبخ السفينة السفلى. قال والدى: "لم تكن هذه فكرة خَطَرَتْ لى فجأة، بل لقد فكرت فى الأمر طويلاً، على مدى السنوات التى عملت فيها فى الـمصنع. نعم! ربـما كنت أحلم بذلك وحسب فى تلك الأيام. والأمر غريب عندما أتأمله، فلولا أننى فقدت وظيفتى ما جرؤت قط على فعل ذلك" وتوقف والدى إذ أدرك أنه لم يشرح شيئًا ثم عاد يقول: "لا بأس، إذنْ! سأقول لكما ما فَكَّرْتُ فيه. ما أحبُّ عملٍ إلى قلوبنا؟ الإبحار؟ صحيح؟ وهكذا قلتُ فى نفسى ألن يكون رائعًا أن ننطلق وحسب فنبحر حول العالـم؟ لقد فعلها غيرنا. ويُسمى ذلك الإبحار فى الـمياه الزرقاء. وقَرَأْتُ عنه فى الـمجلات" .

"كانت الفكرةُ حُلْمًا وحسب فى البداية، كما ذكرت. ثم أتى فقدان العمل وفقدان الفرصة فى الحصول على عمل. ماذا يقول المرء فى هذه الحالة؟ اركب الدراجة. إذن لِمَ لا نركب سفينة؟ لقد حصلنا على نقود التعويض عن الفصل من العمل، مهما تكن قليلة. ولدينا بعض المدخرات، وثمن بيع السيارة. ليست ثروة كبيرة ولكنها تكفى. ماذا نفعل بها؟ لى أن أضعها فى البنك كلها، مثلما فعل الآخرون. ولكن لماذا؟ حتى أَشْهَدَها تتناقص يومًا بعد يوم حتى تَنْفَد؟ قلت فى نفسى ربما استطعت أن أفعل شيئًا جميلاً حقًا بها، شيئًا لا يحدث إلا مرة واحدة فى العمر، إذ لنا أن نبحر حول العالم. إفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا والمحيط الهادئ. لنا أن نشاهد أماكن لم نعرفها إلا فى الأحلام".

وجلسنا صامتيْن من الصدمة. وعاد والدى يقول: "أعرف ما يجول بخاطركما. أنتما تقولان إننا لم نعرف من قبل إلا الإبحار فى مياه الخزان، فى الزورق الصغير. وتقولان إننى مجنون، فَقَدْتُ عقلى، وتقولان إنه أمر خَطِر، وتقولان إننى سوف أُفلس تمامًا بعدها، ولكننى فكَّرْتُ ودبَّرْتُ كل شىء، بل حتى فَكَّرْتُ فى أمر جَدَّتك يا مايكل - مثلاً. فنحن لن نختفى إلى الأبد. وسوف تكون فى انتظارنا عندما نعود. فهى فى أتم صحة وعافية".

"ولدينا النقود الكافية. لقد حَسَبْتُ حساباتى: سوف نقضى ستة أشهر فى التدريب، ثم نقطع الرحلة فى عام أو فى ثمانية عشر شهرًا، وَفْقَ ما تكفى النقود. وسوف نَحْرِصُ على السلامة فى الرحلة، ونقوم بها على الوجه الصحيح. وسوف تحصلين يا "ماما" على شهادة قيادة اليخت. آه! ألم أذكر لكما ذلك؟ لا لم أذكره من قبل: سوف تكونين رُبَّانَ السفينة يا "ماما"! وسوف أكون ضابط السفينة الأول والقائم بالأعمال اليدوية. وأنت يا مايكل سوف تكون غلام السفينة. وأما ستلا - الواقع أن ستلا يمكن أن تلعب دور "قطة السفينة"!" كان والدى مُفْعَمًا بالحماس، يلهثُ من فَرْطِ الانفعال. "سوف نُتْقِنُ التدريب، ونقوم بعدة رحلات عبر القنال الإنجليزى إلى فرنسا، وربما أيضًا إلى إيرلندا. وسوف نعرف كل صغيرة وكبيرة عن هذه السفينة كأنها فرد من أفراد الأسرة. طولها أربعة عشر مترًا، وأماكن المجاديف مُحْكَمة الصنع والتصميم، بل أفضل ما يمكن العثور عليه وأكثرها أمانًا. لقد دَرَسْتُ الأمر جيدًا. ستة أشهر من التدريب ثم نقوم برحلة حول العالم. ستكون مغامرة العمر. فرصتنا الوحيدة. لن تُتاح لنا فرصة أخرى. ماذا تقولان إذن؟"

وقلتُ فى حماسٍ: "مُمْـ.. ـتاز"، وكان ذلك حقًّا رأيى.

وسَأَلَتْهُ والدتى: "تقول إننى سأصبح قائد السفينة؟" وقال والدى وهو يضحك ويحييها تحية البحارة: "نعم، نعم أيها الربان!"

فعادت تقول: "وماذا نفعل فى مدرسة مايكل؟"

وقال والدى: "فكرت فى هذا أيضًا. سألت فى المدرسة المحلية هنا. لقد رتبنا كل شىء. سوف نصحب جميع الكتب التى يحتاجها. وسوف أتولى تعليمه. وكذلك أنت. وسوف يُعَلِّمُ نفسه. ودعينى أؤكد لك بالمناسبة أنه سوف يتعلم فى عامين بالبحر أكثر مما يمكنه أن يتعلم على الإطلاق فى مدرسة القرود التى يذهب إليها. هذا وعد منى".

ورَشَفَتْ والدتى رشفةً من فنجان الشاى وأَوْمَأَتْ برأسها ببطء. ثم قالت: "لا بأس". ولاحظْتُ أنها تبتسم، ثم أضافت: "ولم لا؟ عليك بها إذن. اشْتَرِها! اشْتَرِ السفينة".

وقال والدى: "لقد اشتريْتُها بالفعل".

لا شك أنه كان جنونًا. كانا يعرفان ذلك، بل كنت أعرفه أنا، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا. وحين أتذكر ما حدث آنذاك أقول إنه كان، ولابد، لونًا من الإلهام الذى دفعه إليه اليأس.

كان الجميع يُحَذِّروننا من ذلك. وجاءتْ جدتى لزيارتنا وقضت معنا فترة فى السفينة. وقالت إن الأمر يدعو

للسخرية، ويدل على التهور وانعدام الإحساس بالمسئولية. كانت تتحدث عن البلايا والمحن التى تنتظرنا: جبال الجليد الطافية، والأعاصير، والقراصنة، والحيتان، وناقلات النفط العملاقة، والأمواج العاتية، وتنتقل من أهوال إلى أهوال، حتى تُخيفَنى وبذلك تُخيف أمى وأبى حتى يتخليا عن الفكرة. ولا شك أنها نجحت فى تخويفى، لكننى لم أُظْهِرْ خوفى قط. لم تفهم جدتى أننا نحن الثلاثة أصبحنا نرتبط برباط واحد من الجنون. لقد صممنا على الرحيل ولن يفلح شىء أو شخص فى إثنائنا عن عزمنا. كنا نفعل ما يفعله الناس فى القصص الخيالية: كنا نريد الانطلاق سعيًا وراء المغامرة.

سارت الأمور فى البداية وَفْقَ التخطيط الذى وضعه والدى، فيما عدا أن التدريب استغرق وقتًا أطول بكثير، فسرعان ما عَرَفْنا أن الإبحار فى سفينة أو يخت طوله أربعة عشر مترًا ليس مجرد إبحار فى زورق أكبر. كان القائمُ بتعليمنا بحارًا عجوزًا ذا شارب كث يعمل فى "نادى اليخت"، واسمه بيل پاركر (وكنا نسميه بارناكل بيل، من وراء ظهره، وتعنى بيل "اللزقة"). وكان قد أبحر مرتين حول كيب هورن، فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية، وعبر المحيط الأطلسى مرتين وحده، وعبر القنال الإنجليزى

"مـرات يـزيـد عـددها على عـدد الوجبات الساخنة التى تناولتها فى حياتك يا بُنَىَّ".

والـحق، أن أيًّا منا لم يكن يحبه كثيرًا. كان صاحبَ عَمَلٍ لا يرحم. وكان يعاملنى ويعامل ستـلا أرتـوا بنفس القـدر من الاحتقار، إذ كان يرى أن الأطفال والكلاب مجـرد مصدر للمضايقة، وإذا وُجِدَ أىٌّ منهما على ظهر سفينة أصبح عبئًا على البحارة. ولذلك تـحاشيت اللقاء به قدر طاقتى، وكذلك كانت ستلا أرتوا تتحاشاه.

ويقتضـى الإنصـاف أن أقـول إن بارناكـل بيـل كان يجيـد صنعته. وعندما انتهى من تعليـمنا، وحَصَلَتْ والدتى على شهـادتهـا، شعـرنا أننـا نستطيـع الإبحـار فى پيجى سو إلى أى مكـان فى العالـم. كان قد غَرَسَ فينا احترام البحر وخشيته، وهو شعور صحى، ولكننا كنا نشعر فى نفس الوقت بالثقة فى قدرتنا على "التعامل" مع أى شىء تقريبًا يأتى به البحـر.

ومع ذلك، فلقد مَـرَرْتُ بلـحظـات أحسسـتُ فيها برعـب يُجَمِّد الأطراف. وكان والدى يشـاطرنى الإحسـاس بالرعـب فى صمـت. وتعلمـت أنك لا تستطيع التظاهـر بالاطمئنان حين تَدْهَمُك موجـةٌ خضـراءُ عاليـةٌ طولها سبعة أمتار، وكنا نهبط فى منخفضات مائية بلغ من عمقها أن أحسسنا أنه من

الـمحال الـخروج منها. لكننا كنا نخرج منها، وكلما نـجـحنا فى التغلب على خـوفنا، وركـوب الأمـواج العالية، ازدادت ثقتنا بأنفسنا وبالسفينة من حولنا.

وأمـا والدتـى فلم تُبْـدِ قـط أَدَقَّ ذرة من ذرات الـخوف. والفضل يـرجع لها وللسفينة پيجى سو معًا فى تغلبنا على أسوأ ما مر بنا من لـحظات. كانت تُصاب بدُوَار البحر من حين لآخر، لكننا لم نُصَبْ به قط. وكانت هذه مَزِيَّةً لنا.

كنا نعيش بالقرب من بعضنا البعض، ملتصقين تقريبًا، وسرعان ما اكْتَشَفْتُ أن الآباء أكثر من مجرد آباء، إذ أصبح والدى صديقًا لى، بل مَلَّاحًا زميلاً لى، وغدا كل منا يعتـمد على صاحبه. وأما والدتى فالـحق - وأنا أعترف به - أننى لم أكن أعرف أنها تتـمتع بهذه الـمقدرة. كنت أعرف دائمًا أنها شجاعة، وأنها كانت دائمًا تُصِرُّ على الـمحاولة حتى تنجح فى فعل ما تريد، ولكنها واصلت الليل بالنهار فى دراسة كتبها وخرائطها حتى أتقنت كل شىء، ولم تتوقف لـحظةً واحدة. صحيح أنها كانت تتسم ببعض الاستبداد إذ ما تهاونّا فى الـحفاظ على السفينة بأكمل صورة مـمكنة، ولكننى لم آبه كثيرًا لذلك، ولم يأبه والدى هو الآخر، وإن كنا تظاهرنا بعكس ذلك. كانت هى ربانَ السفينة. وكانت الـخُطَّةُ أن تطوفَ بنا حول العالـم وتُعيدَنا. كانت ثقتنا مطلقة فيها، وكنا فخوريْن بها. كانت باختصار نابغة. ولابد أن أقول

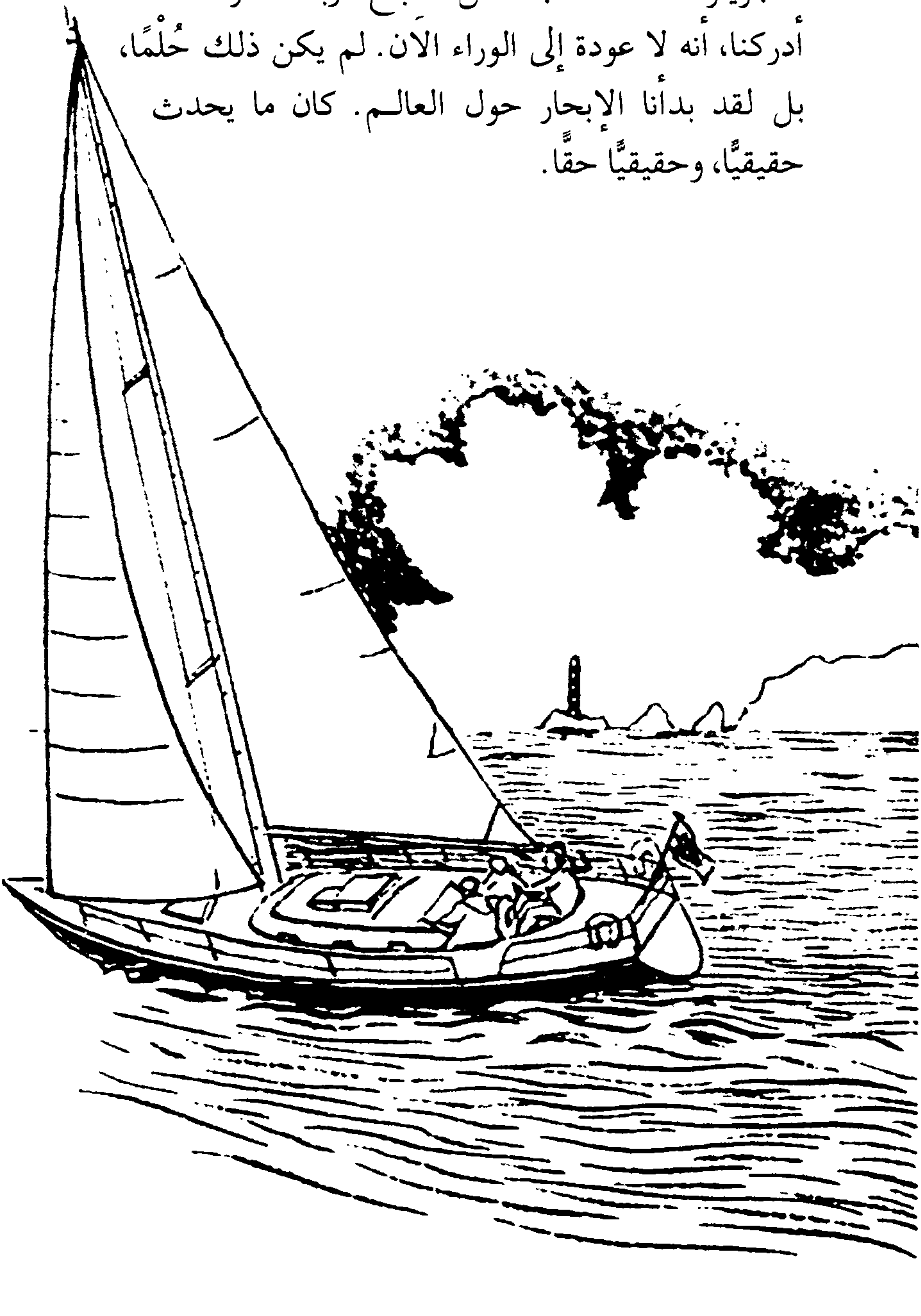
أيضًا إن غلام السفينة وضابطها الأول كانا من النوابغ أيضًا فى تشغيل الروافع، وإدارة الدفة، وكانا ماهرْين فى إعداد الفاصوليا الـمعلبة فى مطبخ السفينة، وهكذا كنا فريقًا متكاملاً رائعًا.

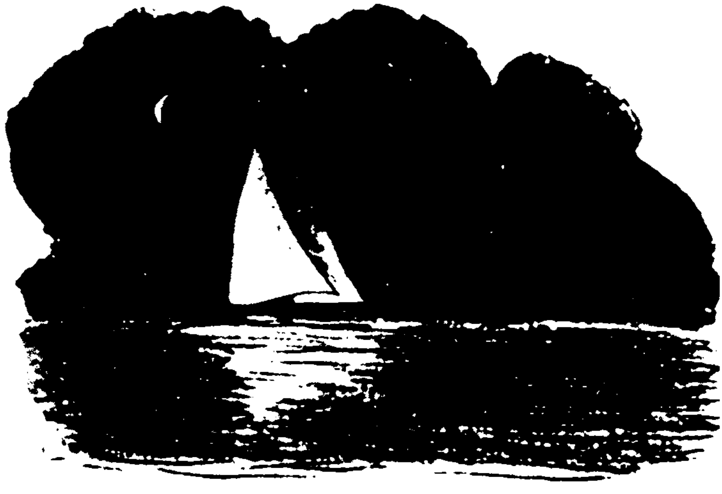
وفى يوم 10 سبتـمبر 1987 - وأنا أعرف التاريخ لأننى أضع سجــلَّ السفينة أمامى أثناء الكتابة - وبعد أن حشدنا فى كل ركن وزاوية بالسفينة ما نـحتاج إليه من مؤونة ومن زاد، أصبحنا أخيرًا على استعداد للإقلاع حتى نبدأ مغامرتنا الكبرى، ملـحمة الأوديسية العظمى لنا.

كانت جدتى حاضرةً لوداعنا وقد اغْرَوْرَقَتْ عيناها بالدموع، وكانت فى النهاية قد وافقت على قيامنا بالرحلة، بل قالت إنها تريد أن تصحبنا لزيارة أستراليا - إذ كانت دائمًا تتوق إلى مشاهدة دببة الكوالا الصغيرة على الطبيعة. وكان فى وداعنا حشـد كبيـر من أصدقائنـا أيضًا، ومن بينهـم بارناكـل بيـل. وجاء صديقي الصغير إدى دودز مع والده. وألقى إلـىّ بكُـرَة قَــدَم أثناء رفع الـمرساة. وصاح عاليًا "إنها تـميـمة السعد!" وعندما فحصتُها فيـما بعد وجدتُ أنه غَمَرَها بتوقيعاته مثل نـجوم كأس العالـم لكرة القدم.

ووَدَّعَتْهُـم الكلبةُ ستـلا أرتـوا بنباحها، كما وَدَّعَـتْ جميع القوارب الراسية أثناء مرورنا بـمضيق سولينت الذى يفصل جزيـرة وايـت عن أرض إنـجلتـرا، ولكننا أثنـاء عبـورنا تلك

الـجزيـرة سكتت فجأة عن النباح. ربـما أدركَتْ، مثلما أدركنا، أنه لا عودة إلى الوراء الآن. لم يكن ذلك حُلْمًا، بل لقد بدأنا الإبحار حول العالـم. كان ما يحدث حقيقيًّا، وحقيقيًّا حقًّا.





الفصل الثانى

الـماء، الـماء
فى كل مكان

يقولون إن الـماء يغطى ثُلُثَىْ سطح الأرض، والواقع أن الأمر يبدو كذلك عندما تكون فى البحر، بل وهو ما تشعر به أيضًا. مـاء البحـر، ومـاء الـمطـر - كله بَـلَلٌ فى بـلل! كنت معظـم الوقت مبتلاً بَلَلاً كاملاً. كنت أرتدى الـملابس اللازمة، إذ كان الربان دائمًا يستوثق من ذلك، ولكن البلل كان يتسرب إلى جسمى بصورة ما.

وفى أسفل السفينة كان كل شىء مبتلاً، حتى الأكياس الـمبطنة الـمعدة للنوم، ولم نكن نستطيع تـجفيف أى شىء إلا عندما تسطع الشمس ويتوقف صدر البحر عن الصعود والهبوط! وعندها نأتى بكل شىء إلى ظهر السفينة، وإذا بسفينتنا پيجى سو وقد ارتدت الـملابس كلها، وامتلأ حبل الغسيـل من آخـر السفينـة إلى مقدمهـا. وكانت العـودة إلى الـجفـاف بعـد البلل متعة حقيقية، لكننا كنا نعرف أنها لن تستـمر طويلاً.

قد تظن أنه لم يكن لدينا عمل كثير يشغلنا نـحن الثلاثة فى السفينة، يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع. ولكن ذلك خطأ مؤكد، فلم تكن تـمر علينا لـحظة هدوء طيلة النهار، وكان لدىَّ دائمًا ما يشغلنى: طىُّ الشراع، وإنزالُه بالرافعة، وإرخاءُ الـحبال، وقيامى بنوبتى عند عجلة القيادة، وهو ما كنت مولعًا به، أو مساعـدة والـدى فى أعمـال الإصلاح والترقيـع التى لا تنتهى، فكان كثيرًا ما يحتاج إلى مساعد له حتى يقبض على الـخشبة مثلاً أثناء الـحفر أو دق الـمسامير أو إدخال البراغى أو النشر، وكنت دائمًا أقوم بالـمسح والتنظيف، أو بإعداد الشاى، أو غسيل الأطباق، أو أعمال التـجفيف. ولن أكون صادقًا إن قلت إننى كنت أحب ذلك كله، ولكن العمل الدائب لم يدع للملل لـحظة واحدة!

لم يكن مسموحًا بالبطالة إلا لعضو واحد من أعضاء طاقم السفينة – ستلا أرتوا – وكانت دائمًا دون عمل. ولـمَّا لم تكن تـجد ما يستحق النُّباح فى صفحة البحر العريض، كانت تقضى الأيام العاصفة متكورة على نفسها فى سريرى فى غرفتى أسفل السفينة. لكنه عندما يصفو الـجو وتشرق الشمس كانت عادة ما تقوم بالـمراقبة فى مقدمة السفينة، منتبهة لأى شىء – أى شىء آخر سوى البحر. والـمؤكد أنه إذا بدا أى شىء فلابد لها أن تلمحه بسرعة: مجموعة من خنازير البحر مثلاً، تغطس فى الأمواج وتخرج منها، أو أســرة من الدلافين التى تسبح بجوار بعضها البعض، وقـد اقتربت من السفينة إلى الـحد الذى يوحى بأنك تستطيع مَـدَّ يَـدِكَ ولمسها! حيتان، وأسماك القرش، بل والسلاحف البحريـة – رأيناها جميعـًا. وكانت والدتى تلتقـط صورهـا بالڤيديو والكاميرا العادية، وكنت ووالدتى نتشاجـر حتى نستخدم الـمنظار الـمقرب. ولكن ستـلا أرتـوا كانت فى جوها الطبيعى، وعاد لها طبع كلبة الرعى، فأخذت تصدر أوامرها بالنباح على كائنات البحر، حتى تـجمعها فى قطيع واحد من أعماق البحر.

وعلى الرغم مـما كانت تسببه لنا من ضيق – إذ كانت تُشِيعُ رائحـة بللها فى كل مكان – فإننا لـم نندم يومًا على اصطحابها

معنا فى هذه الرحلة، فقد كانت مصدر تسرية وسلوى لنا. فعندما كان البحر يضطرب بنا ويخضخضنا، وتشعر والدتى بدوار البحر حتى يكاد يُغشى عليها، كانت تهبط إلى أسفل السفينة وتجلس ممتقعة اللون شاحبة، وعلى حجرها ستلا تلاطفها وتتلقى ملاطفتها. وعندما كنت أشعر بالرعب من الأمواج العالية كالجبال وصرخات الريح الداوية، كنت أتكور مع ستلا فى مرقدى بالسفينة، وأدفن رأسى فى عنقها وأحتضنها بشدة. وفى مثل تلك الأوقات - ولا أظن أنها كانت كثيرة، لكننى أذكرها بدقة شديدة وحسب - كنت دائمًا أضع كرة إدى بالقرب منى أيضًا.

أصبحت كرة القدم بمثابة تعويذة أو تميمة تجلب الحظ، وبدا لى أنها تجلبه فعلاً. فالواقع أن كل عاصفة كانت تهدأ فى النهاية، وكنا لا نزال بعدها أحياء، سالمين، ونطفو فوق صفحة الماء.

كنت أتمنى أن ينسى والدى ووالدتى مسألة الواجبات الدراسية، وكان يبدو فى البداية أنهما نسيا الموضوع كله، لكننا ما إن تغلبنا على عدة عواصف، وما إن استقر بنا الحال وانطلقنا فى طريق رحلتنا، حتى أجلسانى وأخبرانى الخبر المزعج، وهو أننى شئت أم أبيت، لابد أن أواصل دراستى، ولم تكن والدتى تقبل المناقشة فى هذا الأمر.

كنت أدرك أن استنجادى بوالدى لن يأتى بنتيجة. فلم يفعل سوى أن هَزَّ كتفيه قائلاً: "ماما هى الربان"، وبهذا انتهى الموضوع. عندما كنا فى المنزل كانت أمى هى أمى وحسب وكنت أستطيع أن أجادلها، وكان ذلك على الأقل من المزايا التى حُرِمْتُ منها على ظهر السفينة پيجى سو حيث لا مناقشة ولا جدال.

كانت تلك مؤامرة، إذ اشترك أبى وأمى فى وضع برنامج كامل للعمل. كان علىَّ أن أستذكر كتب الرياضيات، وقال أبى إنه سوف يساعدنى إذا صادفتنى عقبة. وأما منهج الجغرافيا والتاريخ، فكان يقضى بأن أكتشف وأسجل كل ما يخص كل بلد نزوره أثناء طوافنا بالعالم، وكان منهج دراسات البيئة ومنهج الرسم يفرضان علىَّ أن أسجل وأرسم صورًا لجميع الطيور التى نراها، وجميع المخلوقات والنباتات التى نصادفها.

وحَرَصَتْ والدتى أيضًا على تعليمى الملاحة البحرية أيضًا، قائلة: "لقد علمنى بارناكل بيل، وسوف أتولى تعليمك. أعرف أنها ليست من المقررات الدراسية ولكن لم لا؟ ومن يدرى؟ ربما عادت عليك بالفائدة." وهكذا علمتنى كيف أستخدم السُّدْسِيّة، وهى آلة المساحة الملاحية، وكيف أسجل قراءات البوصلة، وأحدد مسار

السفينة على الخريطة. وكان من واجبى تسجيل خطوط الطول والعرض فى سِجِلّ السفينة كل صباح، وكل مساء، وبانتظام دائم.

لا أظن أننى كنت انتبهت حقًّا لوجود النجوم من قبل. وأما الآن فكنت كلما أتولى نوبة المراقبة فى غرفة القيادة ليلاً، بعد تشغيل جهاز التوجيه الذاتى للسفينة پيجى سو بدوارة الريح، والآخرون نائمون فى أسفل السفينة، لم يكن لى رفيق سوى النجوم. وكنت أثناء تحديقى فيها أشعر أحيانًا أننا آخر الأحياء فى كوكب الأرض كله. لم يكن هناك سوانا، والبحر المظلم من حولنا وملايين النجوم من فوقنا.

وكانت نوبة المراقبة الليلية هى الوقت الذى كثيرًا ما استذكرتُ فيه دروس اللغة. وكانت تتخذ صورة وضع ملاحظاتى الخاصة فى سجِلّ السفينة. لم يكن مفروضًا علىَّ أن أعرضها على والدىَّ، لكنهما كانا يشجعاننى على الكتابة فى السجل مرة كل عدة أسابيع، وقالا إنها سوف تمثل سِجِلّى الخاص والشخصى لرحلتنا.

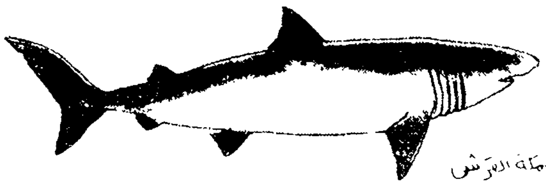
لم أكن أجيد الكتابة إجادة كبيرة فى المدرسة، فلم أكن أستطيع قط أن أجد الأفكار اللازمة للكتابة أو أن أعرف كيف أبدأ، وأما على متن پيجى سو فقد اكتشفت أننى أستطيع أن أفتح السجل وأكتب بيسر. كانت لدىَّ دائمًا أفكار كثيرة



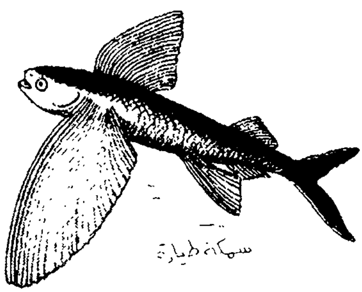
أريد التعبير عنها. وهذا لُبُّ الـموضوع. إذ اكتشفتُ أننى لم أكن أكتبها على الإطلاق بل أقولها وحَسْب. كنت أنطق بها كما تخطر ببالى، وتنطلق فى ذراعى حتى تصل إلى أصابعى وقلمى فتتخذ شكلها على الصفحة، وهذه هى الصورة التى تبدو لى فيها الآن بعد مرور كل هذه السنوات، أىْ صورة الكلام الذى تفوهت به.

إننى أنظر الآن إلى السجل الخاص بى. لقد تجعدت أوراقه قليلاً واصفرَّ لون الصفحات بمضى الزمن، وخطّى الردىءُ شحب لونه قليلاً لكننى أستطيع قراءته بسهولة فى معظم الأحيان. والملاحظات المسجلة قصيرة، ولكنها تقصُّ القصة كاملة. وفيما يلى أروى كيف سجلتُ أحداث رحلتنا العظيمة، وكيف بدت لعين غلام فى الحادية عشرة، ونحن نركب متن المحيطات الشاسعة فى هذا العالم على ظهر السفينة پيجى سو.

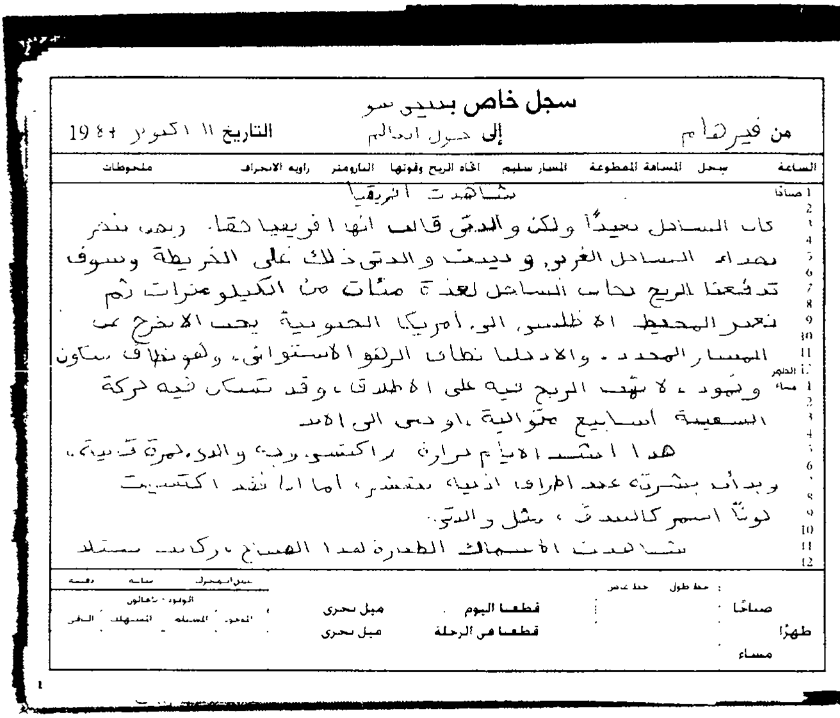
ملحوظات يومية ورسومات توضيحية



سمكة القرش
طولها 30 40 مترا



سمكة طيارة



سجل خاص بـ [illegible]

من فيرهام — إلى حول العالم — التاريخ ١١ اكتوبر 1984

الساعة | سجل | المسافة المقطوعة | المسار سليم | اتجاه الريح وقوتها | البارومتر | زاوية الانحراف | ملحوظات

١ صباحًا شاهدت افريقيا

كان الساحل بعيدًا ولكن والدتي قالت انها افريقيا حقا. [illegible]
[illegible] الساحل الغربي، و[illegible] والدتي ذلك على الخريطة وسوف
تدفعنا الريح بحذاء الساحل لعدة مئات من الكيلومترات ثم
نعبر المحيط الاطلسي الى أمريكا الجنوبية. يجب الا نخرج عن
المسار المحدد. والا دخلنا نطاق الركود الاستوائي، وهو نطاق سكون
وهدوء. لا تهب الريح فيه على الاطلاق، وقد تتوقف فيه حركة
السفينة اسابيع متوالية، او حتى الى الابد.
هذه الايام حرارة [illegible] والدي [illegible]
وبدأت بشرته عند اطراف اذنيه تتقشر، أما انا فقد اكتسبت
لونًا اسمر كالبندق، مثل والدتي.
شاهدت الأسماك الطائرة لهذا الصباح، [illegible]

صباحًا — قطعنا اليوم — ميل بحري
ظهرًا — قطعنا في الرحلة — ميل بحري
مساء

الفصل الثالث

سجل السفينة

20 سبتمبر

الساعة الآن الخامسة صباحًا. وأنا أقوم بنوبة المراقبة فى غرفة القيادة، والجميع نائمون. تركنا ساوثامتون منذ عشرة أيام. وكان القنال الإنجليزى مليئًا بناقلات النِّفْط.

كانت عشـرات الناقلات تغـدو وتــروح. وهكذا كان أبى وأمى يتبادلان الـمراقبـة فى الليلتين الأولين، ولم يسمحا لـى بذلك. لا أدرى لـمَ لا. لم يكن فى الـجو أى ضباب، وقدرتـى على الرؤيـة لا تقـل عن قدرتهما.

كنا نعتزم أن نقطع مسافة 320 كيلومترًا فى اليوم، أى أن نسير بسرعة ثمانى عُقَد، ولكننا لم نستطع تـجاوز 80 كيلومترًا يوميًّا فى الأسبوع الأول.

كان بارناكل بيل قد حذرنا من خليج بسكاى، ما بين فرنسا وإسبانيا، وهكذا توقعنا سوء الأحوال الـجوية فيه، وصَدَقَتْ توقعاتُنا. كانت قــوة الريــح فيه تصـل إلى 9 وأحيانًا إلى 10 عُقَـد، وكانت الريـح تتقاذفنا هنا وهناك. وظننت أننـا سـوف نغـرق. بل كنت أعتقد ذلك حقًّا. وذات يوم عندما حملتنا موجة عالية رأيت مقدم السفينة پيجى سو يشير إلى أعلى، نـحو القمر، فكأنـما كانت سوف تنطلق إليه، وإذا بنا ننحدر إلى الـجانب الآخر بسرعة خارقة حتى تصورتُ أننا سنغوص إلى القاع. كان الـموقف سيئًا. أقصد أنه كان رهيبًا، رهيبًا حقًّا، ولكن پيجى سو لم تتفتت، ونـجـحنا فى الوصــول إلى إسپانيا.

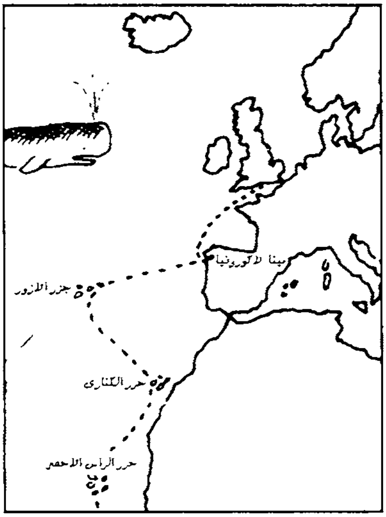
أحيانًا يضيق صدر والدتى فتنهرنا عندما نرتكب خطأ ما، ولا يبدو أن والدى كان يغضب من ذلك، أقصد هنا – فى

البحر – بل يكتفى بأن يغمز لى بعينه فنستمر فى العمل. كانا يلعبان الشِّطْرَنج كثيرًا عندما يسمح صفاء الجو بذلك. ووالدى متقدم على والدتى بخمسة أشواط مقابل ثلاثة. وتقول والدتى إنها لا تهتم، ولكنها مهتمة، وأستطيع أن أرى الدلائل.

لم نقض فى ميناء لاكورونيا، شمالىّ إسپانيا، سوى يومين. كانت والدتى تنام كثيرًا، فهى مرهقة حقًّا. قام والدى بعمل بعض الإصلاحات فى حبل الدفة عندما كنا هناك. ومع ذلك، فلا يزال غير راضٍ عنه. وبدأنا الإبحار نحو جزر الآزور منذ يومين.

كان أمس أفضل يوم للإبحار حتى الآن. فالنسائم قوية، والسماء زرقاء، ودفء الشمس الساطعة يكفى لتجفيف الأشياء. كنت علقت الشورت الأزرق الخاص بى على حبل الغسيل لكنه طار ووقع فى البحر. غير مهم. لم أكن أحبه كثيرًا على أية حال. شاهدنا طيور الأطْيَش البحرية وهى تغطس فى البحر فى كل مكان لالتقاط الأسماك عصر هذا اليوم. رائع حقًّا. وأخذت ستلا أرتوا تنبح بجنون.

مللت أكل الفاصوليا المعلبة، ولا يزال لدينا مخزون كبير أسفل السفينة.



11 أكتوبر

شاهــدت إفريقيــا اليـوم! كان الســاحــل بعيـــدًا ولكن والدتـى قالت إنها إفـريقيـا حقًّا. ونحن نبحر بحــذاء السـاحل الغربى. وبَيَّنَتْ والدتى ذلك على الـخريطــة. وسوف تدفعنا الريح بجانب الساحل لعدة مئات من الكيلومترات ثم نعبر الـمحيط الأطلسى إلى أمريكا الـجنوبيــة. يجب ألا نخـرج عن الـمسار الـمحدد، وإلا دخلنا نطـاق الرَّهْـو الاستوائى، وهو نطاق سكون وخمود، لا تهب الريح فيه على الإطلاق، وقد تسكن فيه حركة السفينة أسابيع متوالية، أو حتى إلى الأبد.

هذا أشد الأيام حرارة. واكتسى وجه والدى حمرة قانية، وبدأت بشرته عند أطراف أذنيه تتقشر، أما أنا فقد اكتسيت لونًا أسمر كالبندق، مثل والدتى.

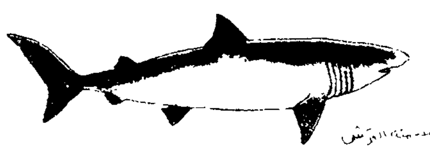
شاهدت الأسماك الطيارة هذا الصباح، وكانت ستلا معى، ثم لـمـحـت والدتى سـمكـة من أسماك القرش بالقرب من

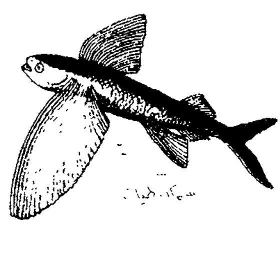
مقدم السفينة، وقالت إنها تستمتع بدفء الشمس. وأتيت بالمنظار المقرب، لكننى لم أستطع أن أراها قط. وقالت والدتى إن علىَّ أن أكتب عنها فى مذكراتى ولو لم أكن شاهدْتُها، ثم أرسم صورتها. وهكذا اضطُررت إلى قراءة ما كُتب عنها. إنها أسماك بالغة الضخامة، لكنها لا تأكل البشر، بل تقتصر على الأسماك وكائنات البلانكتون الدقيقة. أحب الرسم، وأفضل صورة رسمتها صورة سمكة طيارة.

أرسلت بطاقة بريدية إلى إدى من جزر الرأس الأخضر. ليته كان معى هنا. إذن لسعدنا وضحكنا معًا.

ستلا تحب الجرى وراء كرة القدم فى الغرفة ثم تثب فوقها. لسوف تخرقها بأنيابها يومًا ما. أنا واثق من هذا.

كان والدى متجهمًا قليلاً فى الآونة الأخيرة، وذهبت والدتى لترقد وحدها، فلديها صداع. أظن أنهما تشاجرا قليلاً. لا أعرف سبب المشاجرة، لكننى أظن أنه الشطرنج.



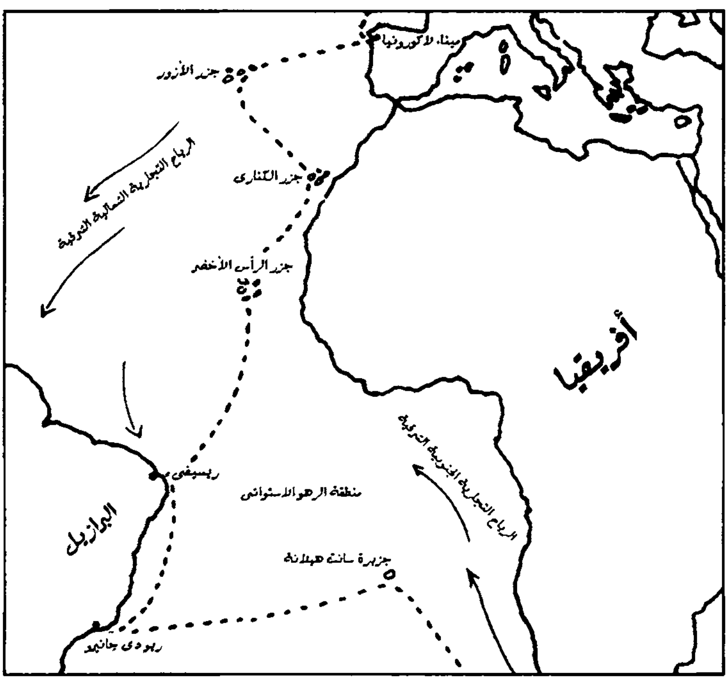


16 نوڤمبر

غادرنا لتوّنا ميناء ريسيفى. وهو فى البرازيل. مكثنا فيه أربعة أيام. كان علينا القيام بإصلاحات كثيرة فى السفينة. كان جهاز توليد الريح يحتاج إلى إصلاح، وحبل الدفـــة لا يزال يلتصق بالبكرة أثناء الدوران.

لعبتُ كرة القدم فى البرازيل! هل سَمعْتَ بذلك يا إدى؟ لعبت كرة القدم فى البرازيل وبكُرَتِكَ ذات السعد! كان والدى يشاركنى تقاذف الكرة وحسب على الشاطىء، وفجأة وجدنا عشرة أطفال ينضمون إلينا. ولعبنا مباراة حقيقية قام والدى بتنظيمها، وانقسمنا إلى فريقين، أطلقت على فريقى اسم "مَدْلاَرْكسْ" وأطلق والدى على فريقه اسم "البرازيل"، وهكذا كان الجميع يريدون أن يلعبوا فى فريقه - بطبيعة الحال! ولكن والدتى انضمت إلى فريقنا وفزنا! كانت النتيجة "مدلاركس" 5 والبرازيل 3، وبعد ذلك دعت والدتى الأولاد لشرب الكوكاكولا فى السفينة. وأخذت ستلا تزمجر فى وجوههم وتكشف عن أنيابها، فاضطررنا إلى حبسها فى الغرفة. وحاولوا مخاطبتنا بالإنجليزية، غير أنهم لم يكونوا يعرفون سوى كلمتين "جول" و"مانشستر يونايتد". إذن فهذه ثلاث كلمات!

وجاءت والدتى بالصور بعد تحميض الأفلام وطبعها، ومن بينها صورة دلافين تقفز فى الهواء، وصورة لى بجوار الرافعة، وأخرى لوالدتى وهى تدير عجلة القيادة، ورابعة لوالدى وهو يقوم بإنزال الشراع الرئيسى بأسلوب بالغ السوء. وكانت من بينها صورة لى وأنا أقذف بقطعة من الصخر فى البحر عندما توقفنا فى جزر الكنارى، وصورة أخرى لوالدى وهو مستغرق فى النوم على ظهر السفينة يستمتع بالشمس ووالدتى تقهقه. كانت على وشك أن تضع قطرات الزيت الذى يحمى من الشمس على بطنه. (أنا الذى التقطت هذه الصورة، وهى أفضل



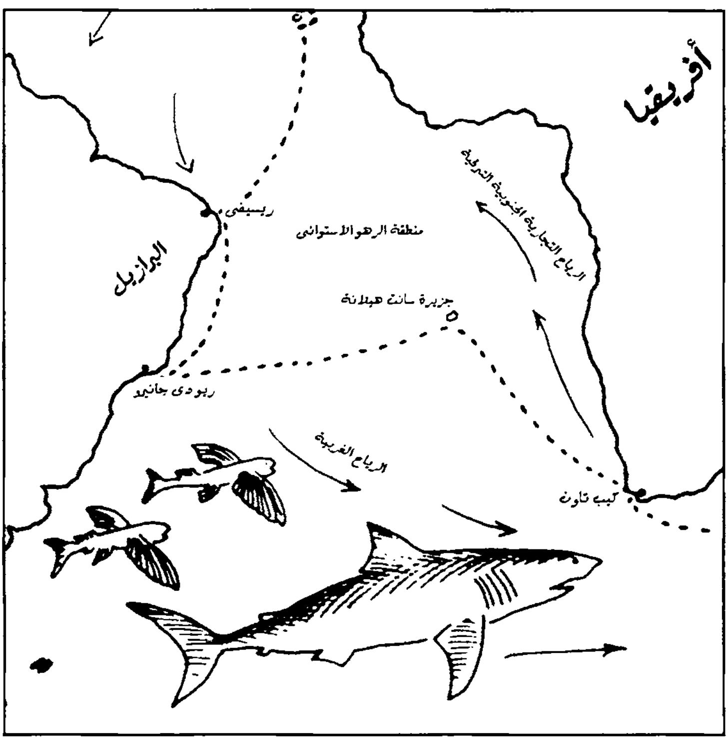
صورة صورتها). وكان من بين الصور أيضًا صورة لى وأنا أستذكر درس الرياضيات، وقد عبس وجهى وأخرجتُ لسانى.

25 ديسمبر

يوم عيد الـميلاد فى البحـــر. وجد والدى محطة إذاعة تذيع أناشيـد عيــد الـميــلاد. وتناولنا البسكويت "الـمقرمش" لكنـه كـان قــد ابتــل قليـلاً فلـم يصبـــح "مقـرمشـًا"، وتناولنا وجبة حلوى عيد الـميلاد التى أعدتها جدتى لنا. وأهديتُ كلًّا منهما صورةً رسمتها، فأهديتُ والدى صورةَ السمكة الطيارة وأهديتُ والدتى صورة الربان، أى صورتها وهى تـدير عجلـة القيـادة وترتدى قبعتها. وأهدانى والدى ووالـدتى مُدْيَـةً جميـلـة حقًّا اشترياها لى فى مدينة ريـو دى چانيرو بالبرازيل. وهكذا رَدَدْتُ إليهما قطعة نقود. هذا هو الـمفترض أن تفعله. فهو يجلب الـحظ الـحسن.

عندما كنا فى ريــو دى چانيـــرو قمنا بتنظيف السفيـنـة پيجى سو تنظيفًا متقنًا. كانت تبدو متسخة قليلاً من الداخل ومن الـخارج، لكنها لم تعد كذلك. واشترينا مقادير كبيرة من الـمؤن والـماء استعدادًا لقطع الـمسافة الطويلة إلى جنوب إفريقيا. وقالت والدتى إننا نسير سيرًا حسنًا، ما دمنا نـحافظ على اتـجاه السير جنوبًا، وما دمنا نلتزم بالإبحار فى تيار جنوب الأطلسى الـمتـجه من الغرب إلى الشرق.

مررنا جنوب جزيرة تُسمى سانت هيلانة منذ عدة أيام. لم نكن نـحتاج إلى التوقف، فليس فيها الكثير. كل ما هناك أنها كانت الـمكان الذى نُفى إليه نابليون بونابرت. وقد تُوفِّى فيها. من الـمؤلم أن يـموت الإنسان فى هذا الـمكان الـموحش. وهكذا كان علىّ، بطبيعة الـحال، أن أكتب موضوعًا دراسيًّا عن نابليون فى منهج التاريخ. كان علىّ أن أقرأ ما كُتب عنه فى دائرة الـمعارف وأن أكتب عنه. وقد وجدت الـموضوع طريفًا لكننى لم أقل لهما ذلك.



الكلبة ستلا تقبع متجهمة في سريرى. ربما حزنت لأنها لم تتلقَّ هدية عيد الميلاد من أحد. عرضت عليها أن تذوق حلوى عيد الميلاد التى أعدتها جدتى، ولكنها لم تلتفت إليها تقريبًا أو تشمها. وأنا لا ألومها على ذلك!

رأيت اليوم شراعًا، يختًا آخر. وهتفنا عيد ميلاد سعيدًا ولَوَّحْنا بأيدينا، ونبحت ستلا نباحًا شديدًا، ولكن من فيه لم يردوا بسبب بعدهم الشاسع عنا. وعندما اختفى الشراع بدا البحر فجأة خاويًا فارغًا.

فازت والدتى فى الشطرنج هذا المساء. أصبحت تتقدم على والدى، بواحد وعشرين مقابل عشرين. وقال والدى إنه تركها تفوز بسبب عيد الميلاد. كانا فيما يبدو لا يأخذان الموضوع مأخذ الجد، ولكنَّ كلًّا منهما يريد أن يفوز.

1 يناير

إفريقيا من جديد. مدينة كيب تاون فى جنوب إفريقيا، وجبل تيبُل. ولن نمر بها أثناء إبحارنا وحَسْب هذه المرة بل سوف نرسو بالميناء. هذا ما قالاه لى هذا المساء. لم يكونا يريدان أن يقولا لى ذلك من قبل خشية ألَّا نقدر على ذلك ماليًّا، ولكن لدينا ما يكفى. سوف نمكثُ هنا أسبوعين، وربما

فترة أطول. سوف نرى الأفيال والأسُود على طبيعتها فى البرية. لا أستطيع أن أصدق ذلك. ولا أظن أنهما يستطيعان التصديق أيضًا. وعندما أخبرانى كانا مثل طفلين، ضاحكين وسعيدين. لم يكن ذلك عهدى بهما فى المنزل من قبل قط. إنهما يبتسمان لبعضهما البعض حقًّا هذه الأيام.

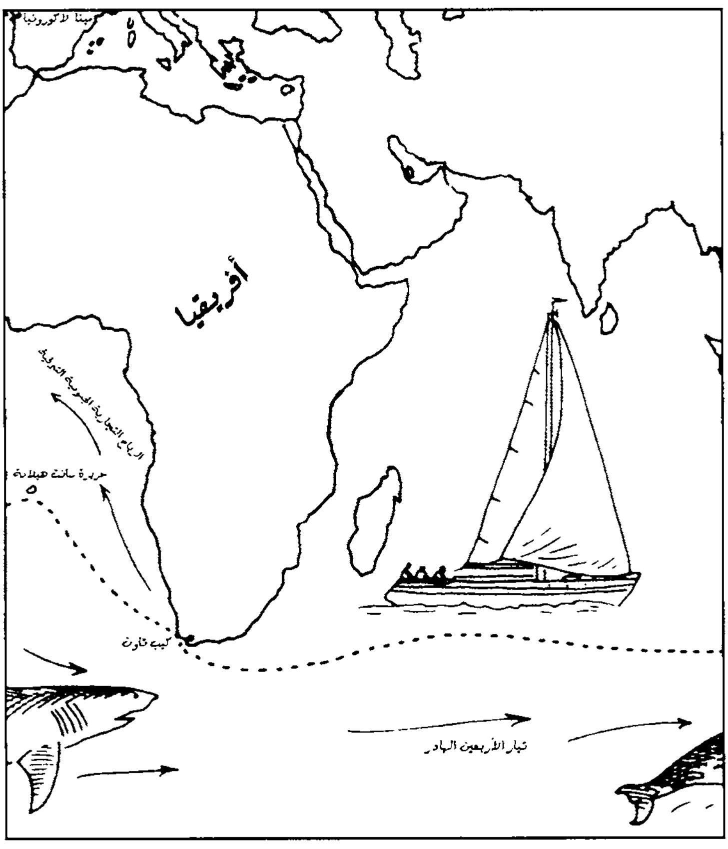
تعانى والدتى من تقلصات فى المعدة. ويريد والدى أن يعرضها على طبيب فى كيب تاون، لكنها ترفض ذلك. لابد أن ذلك بسبب الفاصوليا المعلبة. أما الخبر السعيد فهو أن علب الفاصوليا قد نفدت أخيرًا. وأما الخبر السيئ فهو أننا تناولنا عشاءنا من السردين المعلب، أعوذ بالله!

7 فبراير

كنا قطعنا مئات الكيلومترات فى المحيط الهندى، وإذا بهذا يحدث! فالواقع أن ستلا نادرًا ما تصعد إلى سطح السفينة إلا إذا كان البحر ساجيًا كالحصير. لا أعرف سبب صعودها ولا أعرف لماذا أتت. ربما كنا جميعًا مشغولين وحسب. فوالدى كان يعد الشاى فى الطَّابَق السفلى، ووالدتى تدير عجلة القيادة، وكنت أنا أمارس تدريبًا عمليًّا فى الملاحة بتحديد موقعنا بجهاز السُّدْسِيَّة، آلة المساحة، وكانت

السفينة پيجى سو ترتفع وتنخفض وتتأرجح قليلاً، وكان علىّ أن أَثْبُتَ فى مكانى. ورفعت بصرى فشاهدت ستلا واقفة فى مقدم السفينة. كانت واقفة وفجأة اختفت.

كنا تَدَرَّبْنَا عشرات المرات على عملية إنقاذ من يسقط فى الماء من السفينة، فى مضيق سولنت، مع بارناكل بيل. لابد من الصياح وتحديد مكان السقوط،



وتكرار الصياح، وتكرار الإشارة إلى الـمكان. ثم نلتفت إلى مهب الريح، ونقوم بخفض الأشرعــة بسرعـة، ونديز محرك السفينة. وهكذا، فعندمـا انتهـــى والدى من إنــزال الشراع الرئيسى والشراع الـمثلث الصغير فى مقدم السفينة، كنا قد بدأنا التحرك إلى الـخلف ناحية ستلا. كنت أنا أتولى الإشارة إلى الـمكان الذى سقطت فيه، والصياح الـمستـمــر أيضـًا. كانت تضــرب الـمــاء بقـوائمـهــا حتى تنجــو من موجـــة خضـــراء مقبلـة عليها، وكان والدى قد انحنى على جـانب السفينـة، وأخذ يـمدُّ يَـدَهُ حتى يصل إليها، لكنه لم يكن يرتدى سترة الأمان، وكانت والدتى فى شبه جنون. كانت تـحاول أن تـجعل السفينة تقترب إلى أقصى حد مـمكن وبأبطأ سرعة من ستلا، ولكن موجة عارمة أبعدتها عنا فى آخر لـحظة. وكان علينا أن نستدير ثم نعود من جديد. وكنت أنا أصيح وأشير بيدى إلى ستلا طول الوقت.

اقتربنا منها ثلاث مرات، ولكننا كُنَّا نتخطَّاها فى كل مرة. أحيانًا كنا نسير بسرعة أكبر مـما ينبغى وأحيانًا لم نكن نقترب منها إلى الـحد الكافى. كانت بـدأت تفقد قوتها، ولا تكاد تضرب الـماء بقوائمها. وبدأت تغوص. كانت أمامنا فرصة أخيـرة. اقتربنا منها من جديد، على النحو الصحيح هذه الـمـرة، واقتربنا منها اقترابًا يـمكِّن والدى أن يَـمُدَّ يده

ويـمسك بها. وتعاون ثلاثتنا فى إخراج ستلا من الـماء، قابضين على طوقها الـجلـدى حـول رقبتها وعلى ذيلها. وقال لى والدى: "أحسنت أيها القرد!" وجعلت والدتى تسخر وتضحك من والدى لعدم ارتدائه سترة الأمان. ولم يفعل والـدى سـوى أن احتضنهـا فاندفعت تبكى. ونفضت ستلا عن نفسها مـاء البحـر ثم هبطـت إلى أسفـل السفينة كأنـما لم يحدث شىء على الإطلاق.

ووضعت والدتى قاعدة صارمة، وهى عدم السماح مطلقًا للكلبة ستـلا أرتـوا بالصعود إلى ظهـر السفينة، مهما تكن الأحـوال الـجويـة، دون أن نُلبسها سترة الأمان، مثلى ومثل والدى ووالدتى. وبدأ والدى يصنع لها سترة أمان خاصة.

ما زلت أحلم بالفِيَلَةِ فى جنوب إفريقيا. أَحْبَبْتُ مشيها فى تَـمَهُّلٍ وتَأَمُّل، وعيونها الدامعة الـحكيـمة. ومازلت أذكر تلك الزرافـات الـمتعـاليـة التى تطل من عليائهـا علىّ، وشبل الأسـد الذى يرقـد وقد وضع ذيل أمـه فى فمه. ورسمت صورًا كثيرة ولا أزال أنظـر إليهـا حتى تُذَكِّرَنى بـما شاهدت. والشمس فى إفريقيا كبيرة جدًّا، حمراء قانية.

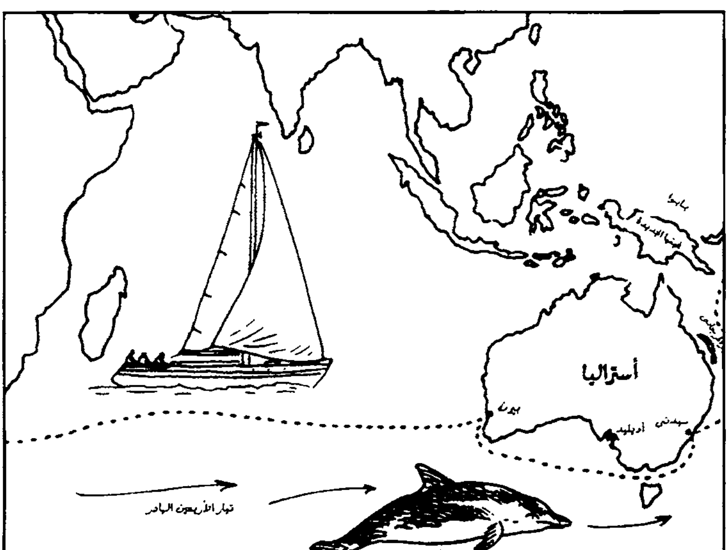
أستراليا هى الـمحطة التالية، بحيواناتها ذات الـجراب مثل الكُنْغُر والپُوسوم والوُمْبات. وسوف يستقبلنا العم چون فى ميناء پيرث. سبق أن شاهدته فى الصور لكننى لم أقابله

حتى الآن. وقال والدى هذا الـمساء إننا لا نرتبط إلا بنسب بعيد، وقالت والدتى: "وهو بعيد جدًّا" وضحك الاثنانِ. ولـم أدرك الفكاهة الـمقصودة حتى عدت للتفكير فى الأمر عندما حَلَّتْ نوبة مراقبتى.

تبدو النجوم أشد لـمَعَانًا، ونجت ستلا من الغرق. أعتقد أننى أسعد مـما كنت عليه فى أى يوم من قبل.

3 إبريل

اقتربنا من پيرث، فى أستراليا. لـم أكن أرى حتى اليوم إلاّ الـمحيط الـخالى الـخاوى منذ أن غادرنا إفريقيا. يزيد



استمتاعي حين تقتصر صحبتنا علينا وعلى السفينة پيجى سو والبحر. وأظن أننا نحس جميعًا هذا الإحساس. ومع ذلك، فحين نلمح اليابسة دائمًا ما نحس بالفرحة الغامرة. وعندما لمحنا أستراليا للمرة الأولى تبادلنا الأحضان وجعلنا نتواثب، فكأننا كنا أول ملاحين يكتشفون قارة أستراليا فى التاريخ. وأَخَذَتْ ستلا أرتوا تنبحنا كأنما جُنَّ جنوننا! وربما كنا كذلك، لكننا نجحنا! لقد قطعنا مسافة شاسعة من إنجلترا إلى أستراليا بحرًا! أى نصف الطريق حول العالم! وفعلنا ذلك وحدنا.

عادت إلى والدتى تقلصات المعدة. سوف تعرض نفسها قطعًا على طبيب فى أستراليا. وعدتنا بذلك وسوف نجعلها تفى بوعدها.

28 مايو

نحن فى البحر من جديد بعدما يقرب من ستة أسابيع مع العم چون. كنا نظن أننا سوف نمكث فى پيرث عدة أيام فقط، ولكنه قال إن علينا أن نشاهد أستراليا كما ينبغى أثناء وجودنا فيها. وهكذا اصْطَحَبَنَا للإقامة مع أسرته فى مزرعة ضخمة. آلاف الأغنام. لديه أعداد كبيرة من الخيول، وهكذا قضيت

وقتًا طويلاً فى ركوب الـخيل مع ابنتىْ عمّى الصغيرتين: بيِثْ وليزا، ورغم أنهما لم تتـجاوزا السابعة والثامنة، فهما تـجيدان ركوب الـخيل. كانتا تدعواننى "مايكى"، وعندما حان رحيلنا كانت كل منهما تريد أن تتزوجنى. لكننا سوف نصبح أصدقاء بالـمراسلة بدلاً من ذلك.

رأيت حيَّةً تُسمى ذات الرأس النحاسىّ. وقال العم چون إننى لو وطأتها بقدمى لقتلتنى. وقال لى أن آَخذ حذرى من العناكب ذات الظهر الأحمر فى دورة الـمياه. وبعدها لم أكن أتردد كثيرًا على دورة الـمياه.

كانوا يسموننا أبناء عمومتهم البريطانيين، وكنا نقيـم حفلاً للشواء فى الهواء الطلق كل مساء. وقضينا معهم أوقاتًا مـمتعة. ولكننى كنت سعيدًا بالعودة إلى السفينة پيجى سو. والـحق أننى اشتقْتُ إليها أثناء مقامنا فى أستراليا، مثلما أشتاق إلى صديقى الصغيـر إدى. كنتُ أُرْسِلُ له بطاقـات بريدية، وأحيانًا بطاقات عليها صور حيوانات غريبة، إذا عثرت عليها. أرسلتُ إليه صـورة دُبَّة الوُمْبات. ولقد رأيت هـذه الـحيـوانات فعلاً، ومئات من حيـوان اليوسوم، والكثير من الكناغر. ولديهم فى أستراليا أعداد كبيرة من الببغاوات البيضاء ذوات العُرْف – بل إنها تُعَدُّ بالـمـلايين مثل العصافير لدينا فى الوطن.

ولكن طيور النورس هنا أيضًا. وأينما ذهبنا فى هذا العالم وجدنا دائمًا طيور النورس. والخطة الموضوعة هى أن نرسو فى ميناء سيدنى على الساحل الشرقى لأستراليا فترة من الوقت، ونستكشف الحاجز المرجانى قليلاً، ثم نبحر عبر بحر المرجان وشمالاً نحو بابوا غينيا الجديدة.

تحسنت حالة والدتى كثيرًا بعد تقلصات المعدة. وقال الطبيب فى أستراليا إن السبب يمكن أن يكون طعامًا تناولته. وقد شُفِيَتْ الآن على أية حال.

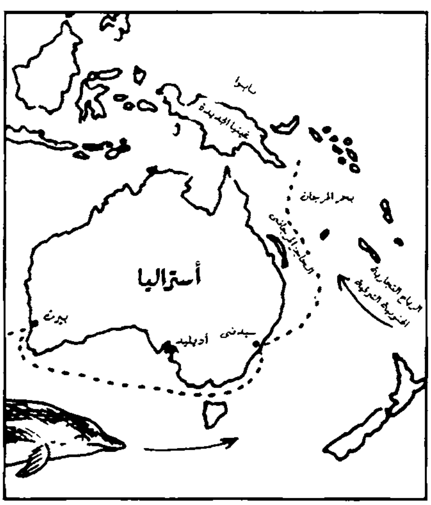
الجو حار وخانق حقًّا. لكنه ساكن أيضًا. ولا توجد رياح. ولا نكاد نتحرك. لا أستطيع أن أرى أية سحب، لكننى واثق أن عاصفة ما سوف تهب. هذا ما أحسه.

28 يوليو

أنظرُ حولى. إنها ليلة حالكة الظلمة. لا قمر ولا نجوم. ولكن السكون قد عاد أخيرًا. سوف أُتم عامىَ الثانىَ عشرَ غدًا، لكننى لا أظن أن أحدًا غيرى سوف يتذكر ذلك.

مر بنا وقت عصيب، أسوأ مما مر بنا فى خليج بسكاى. فمنذ أن غادرنا سيدنى توالت العواصف علينا دون انقطاع، وكانت كلٌّ منها تدفعنا شمالاً عبر بحر المرجان. انقطع حبل

الدفقة. فَعَـلَ والدى ما يستطيع ولكن الـحبـل لايزال يحتاج إلى إصلاح. جهـاز القيادة الذاتية لم يعد يعمل، وهكذا لابد من وجود أحدنا عند عجلة القيادة طول الوقت. وهذا معناه إمـا والـدى وإما أنا لأن والـدتـى عاودهـا الـمـرض. تقلصات الـمعدة من جـديـد، ولكنها ازدادت الآن سوءًا. وهى لا تريد أن تتناول أى طعام. وكل ما تتناوله هو الـماء الـمُحَلَّى بالسكر. لم تستطع أن تنظر إلى الـخرائط لمدة ثلاثة أيام. يريـد والدى أن يرسل إشارة استغاثة ولكن والدتى تـمنعـه. وتقول إن معنى هـذا هـو الاستسـلام. شاركنى أبى فى العمليات الـملاحيـة، وبذلنا قُصَارى جَهْدنا، ولكننى أعتقد أننا لم نعد نعرف مكاننا.



إنهما الآن نائمان فى أسفل السفينة. والدى يعـانى من الإرهـــاق الشديد. وأنا أدير عجلة القيادة فى غرفة القائد. ومعى كرة القدم التى أهدانى إدى إيـاها، لقد جـلبـت لنـا الـحـظ

الـحسن حتى الآن، وهو أشد ما نـحتاج إليه الآن حقًا. نـحتاج إلى شفاء والدتى، وإلا أصبحنا فى مشكلة حقيقية. لا أعرف إن كنا نستطيع احتـمال هبوب عاصفة أخرى.

الـحـمد لله علـى سـكون الـجــو. ســوف يساعد ذلــك والدتى على النـوم. فالنـوم يتعـذر حـين تتقـاذفـك الأمـواج طول الوقت.

الظلام دامس فى البحـر وستلا تنبـح، وتقـف على مقدم السفينة. وهى لا ترتدى سترة الأمان.

كانت هــذه آخــر كلمــات كتبتها فى سـجـل السفينة. والصفحات التالية بيضاء.

حاولت أن أنادى ستلا أولاً لكنها لم تأت. وهكذا تركتُ عجلة القيادة وتقدمتُ لإعادة ستلا. وأخذتُ الكـرة معى لإرضائها وإغرائها بالعودة من مقدم السفينة.

وقبعتُ فى مكـانى وقلـت: "تعالى يا ستـلا!" وأنا أنقل الكرة من يـد إلى يـد، وناديتهـا "تعـالى خـذى الكـرة". وأحسست بالسفينـة تـميـل قليلاً بسبب الريح، وعرفت حينذاك أننى أخطـأت حـين تركـت عجـلة القيـادة. وأفلَتَت الكرة من يـدى فجـأة وتدحـرجـت فارتـميت خلفها؛ لكنها كانت قد وصـلت للـجانب الآخــر قبل أن أُمسكها. كنت

مستلقيًا على ظهر السفينة أتابعُ الكرةَ بنظراتى وهى تختفى فى الظلام. كنت غاضبًا أشد الغضب من نفسى بسبب حماقتى الشديدة.

كنت لاأزال ألوم نفسى عندما تصورت أننى أسمع صوت غناء. كان أحدهم يغنى فى مكان ما وسط الظلام. ناديتُ ولكننى لم أتلقَّ ردًّا. إذن، فذلك ما كانت ستلا تنبحه.

بحثت مرةً أخرى عن كرتى لكنها كانت قد اختفت. كانت الكرة ثمينة جدًّا بالنسبة لى، وثمينة لنا جميعًا. وأدركت عندها أننى فَقَدْتُ لتوِّى ما يزيد كثيرًا عن مجرد كرة قدم.

كنت غاضبًا من ستلا، إذ كانت السبب فى هذا كله. كانت لاتزال تنبح. ولم أعد أستطيع سماع الغناء. ناديتها من جديد، ودعوتها بالصفير للعودة. لكنها لم تأت. نهضتُ واقفًا وتَقَدَّمْتُ. وأمسكتُ بطوقها الجلدى وشددتها ولكنها رفضت أن تتحرك. لم أكن أستطيع أن أَجُرَّهَا للعودة بها هذه المسافة كلها فانحنيت حتى أحملها. كانت لاتزال رافضة. ثم احتَضَنْتُها بين ذراعيَّ وهى تجاهد للتحرر من قبضتى.

وسمعت زفيف الريح من فوقى فى الأشرعة، وما زلت أذكر أننى قلت فى نفسى: هذا حمق! إنك لا ترتدى سترة الأمان ولا سترة النجاة وعليك أن تتوقف عما تفعله. ثم إذا بالسفينة تميل بعنف وتلقى بى جانبًا. ولما كنت

أقبض بذراعىّ على ستلا لم أجد الوقت اللازم لأمسك بسور السفينة الحديدى. وقبل أن أستطيع حتى أن أفتح فمى لأصرخ أصبحنا فى وسط مياه البحر الباردة.





الفصل الرابع

قرود وأشباح

تتابعتْ أهوالُ الرعبِ بسرعة. وابْتَعَدَتْ أضواءُ السفينة پيجى سو ثم اخْتَفَتْ فى ظلام الليل، تاركةً إياى وحيدًا فى المحيط، وحيدًا مع ثقتى بأن الأضواء قد بَعُدَتْ بُعْدًا شديدًا وأن صرخات استغاثتى من المحال أن يسمعها أحد. وخطر ببالى وجود أسماك القرش السابحة فى المياه

السوداء من تـحتى، تتشمـم رائحتى وتتعقبنى وتشق طريقها إلـىّ، وعَرَفْتُ أنه لا أمل. سوف تأكلنى حيًّا. إما ذاك أو أن أغرق ببطء. لا يـمكن أن ينقذنى الآن شىء.

وضربت الـمـاء بأقدامى فطفـوت، وأنا أبحث بجنون فى الظُّلْمَة الصَّمَّاء من حولى عن شىء - عن أى شىء يـمكن أن أسبح لأصلَ إليه. لكنه لم يكن هناك شىء.

ثم لـمحت فجأة شيئًا أبيض فى الـماء. ربـما كان زَبَدَ موجة. لكنه لا توجد أمواج. ستلا! لابد أن تكون ستلا. حمدت الله كثيرًا وشعرت براحة عميقة لأننى لم أكن وحدى. وناديتُها وسبحتُ تـجاهها. لكنها كانت دائمًا بعيدة، تختفى وتعود للظهور ثم تختفى من جديد. كانت تبدو قريبة جدًّا، لكننى اضطررت إلى السباحة بشدة عدة دقائق قبل أن أقترب منها اقترابًا يكفى لـمدِّ يدى ولـمسها. وعند ذلك فقط أدركْتُ خطئى. رأس ستلا يغلب عليه السواد، وأما هذه فبيضاء. كانت كرة القدم. أمسكتُها وتَعَلَّقْتُ بها وقد أحسستُ بقدرتها الرائعة وغير الـمتوقعة على الطفو. وثابرتُ وأنا أضربُ الـماء بقدمىَّ وأنادى ستلا. لكننى لم أَلْقَ جوابًا. ناديتُ وناديت. لكننى كلما فتحتُ فمى الآن دَخَلَتْ فيه مياه البحر. كان علىَّ أن أكُفَّ عن النداء. فالواجب أن أُنقذ نفسى إذا استطعت.

لم يكن هناك جدوى من إهدار الطاقة بـمحاولة السباحة. وعلى أية حال، لم يكن هناك مكان أسبح نـحوه. وقررت بدلاً من ذلك أن أطفو وحسب. ومن ثَم قررت أن أتعلق بكرة القدم، وأن أضرب الـماء بقدميَّ ضربًا خفيفًا وأن أنتظر عودة السفينة پيجى سو. لابد أن والديَّ سوف يكتشفان عاجلاً أو آجلاً أننى وقعت فى البحر، وأن يأتيا للبحث عنى عاجلاً أو آجلاً. يجب ألا أرفس الـماء بشدة، بل بـما يكفى فقط للطفـو، لإبقاء ذقنى فوق سطح الـماء. فكثرة الـحركة سـوف تـجتذب أسماك القرش، ولابد أن الصبح قريب. لابد أن أثابر إذن حتى يطلع الصبح. لا مفر من ذلك. لم تكن بـرودة الـميـاه قارسـة. وكانت معى كـرة القـدم. والفرصـة لاتزال قائمـة.

ظللت أقول ذلك لنفسى الـمرة بعد الـمرة. ولكن الدنيا ظلت سـوداء لا تريـد التخفيف من سـوادها من حولى، كما بدأت أشعر أن برودة الـماء تُـجَمِّدُنى حتى الـموت. حاولت أن أُغَنِّىَ حتـى أتوقَّفَ عن الارتـجـاف وحتى أُبعـد صـور أسماك القرش عن بالى. غنَّيْتُ جميع الأغانى التى أذكرها، لكننى كنت بعد قليل أنسى كلمات الأغنية. ودائمًا كنت أعود إلى الأنشودة التى كنت واثقًا من إتـمامها وهى "عشر زجاجات خضراء". غَنَّيْتُها بأعلى صوتى مرات كثيرة. كنت

أستمد الاطمئنان من رنين صوتى، الأمر الذى جعلنى أُحِسُّ بوحشة أقلَّ فى البحر. وكنت دائمًا أبحث عن لمعة الفجر الخضراء، لكنها تأبى أن تأتى وتأبى أن تأتى.

وسَكَتُّ آخر الأمر ولم تعد رِجْلاىَ تضربان الماء. وتعلَّقْتُ بكرة القدم، ورأسى ينساق إلى النوم. كنت أعرف أننى يجب ألا أنام، لكننى لم أستطع المقاومة. وكانت يدى كثيرًا ما تنزلق من الكرة. كنت أفقد بسرعة آخر ما لدىَّ من قوة. وهكذا كنت سأهبط، وأهبط إلى قاع البحر وأرقد فى قبرى وسط الطحالب البحرية وعظام الملاحين الغرقى وحطام السفن.

والغريب أننى لم آبَهْ لذلك حقًّا. لم أكن أكترث، أو لم أعد أكترث. وجَعَلْتُ أطفو حتى غلبنى النعاس، وجاءت الأحلام. ورأيت فى حُلْمى سفينة تتقدم نحوى ساكنةً فوق صفحة البحر. إنها بيجى سو! بيجى سو العزيزة الحبيبة! لقد عادا يبحثان عنى. كنت أعرف أنهما سيعودان. وأَمْسَكَتْنى أَذْرُعٌ قوية، وحملتنى إلى أعلى خارج الماء. ورقدتُ هناك فوق ظهر السفينة، أَنْشِقُ الهواء بصعوبة مثل سمكة حَطَّتْ على اليابسة.

كان شخصٌ ما قد انحنى فوقى، وأخذ يهزنى ويحادثنى. لم أفهم كلمة واحدة مما قاله. لكن ذلك لم يهمنى. شعرت

بأنفاس ستلا على وجهى، وأحسست بلسانها يلعق أُذُنى. لقد كُتِبَتْ لها السلامة. وكُتِبَتْ لى السلامة. كل شىء على ما يرام.

استيقظت على صوت عواء يشبه صوت عصف الريح الشديدة من خــلال ســوارى السفينــة. ونظرت حولى فلم أجد سارية واحدة فوقى، ولا شراعًا واحدًا. ولم أشعر بحركة تـحتى أيضًا، ولا بأى نسيـم يهب. كانت ستلا أرتوا تنبح، ولكنها على مبعدة ما منى. لم أكن فوق ظهر أيَّة سفينة على الإطلاق، بل راقدًا مـُمَدَّدًا على الرمال. وتحول صوت العواء إلى صياح، بل إلى صراخ حاد متصاعد ومخيف يخبو صوته فيـما يُحْدِثُهُ من أصداء.

وجَلَسْتُ. كنتُ على شاطئ البحر، منطقة رملية بيضاء عريضة، ومن خلفى أشجار كثيفة وكَثَّة حتى الشاطئ. ثم رأيتُ ستلا تتواثب فى الـمياه الضحلة. ناديتُها فجاءت قفزًا من البحر لتحيتى، وذيلها يدور فى الهواء بعنف. وبعد أن انْتَهَتْ من التنطيط ولعقى بلسانها واحتضانى، اجْتَهَدْتُ حتى وَقَفْتُ على قَدَمَىَّ.

كنت أشعر بضعف فى جسمى كله. ونظرت حولى. كان البحر الأزرق الواســع خاويًا مثل السمـاء الصافيـة الـخالية من السحب من فوقى. لم تكن هناك بيجى سو. لم تكن

هناك أية سفن. لا شيء. لا أحد. ناديتُ وناديتُ مراتٍ على أمي وأبي. وظللت أنادى حتى اغرورقت عيناى بالدموع ولم أعد أستطيع النداء، وحتى أدركت أنه لا فائدة فى النداء. ووقفتُ هنالك بعض الوقت أحاولُ أن أفهم كيف انتهيتُ إلى هذا المكان، وكيف تسنَّى لى أن أنجو، وقد اخْتَلَطَت الذكرياتُ فى رأسى، بعضها يقول إنهما أنقذانى، وبعضها يقول إننى على متن السفينة بيجى سو. لكننى الآن واثق أن هذا محال. لابد أننى رأيت ذلك فى المنام، وحَلَمْتُ بكل ذلك. لابد أننى تعلقت بكرة القدم فظللتُ طافيًا حتى ألقتنى الأمواج على الشاطئ. وخطرتْ ببالى كرة القدم عندها، لكننى لم أستطع رؤيتها فى أى مكان.

ولم يكن يعنى ستلا، بطبيعة الحال، تساؤلى عن الأسباب والعلل، بل ظلت تأتى لى ببعض العِصِىِّ حتى أقذفها فتجرى خلفها ركضًا لتحضرها من البحر دون أن يقلقها شيء فى الدنيا.

ثم عادت أصوات العواء القادمة من جهة الأشجار، فاستفزت ستلا حتى وَقَفَ شعرُ رقبتها، وانْطَلَقَتْ تجرى على الشاطئ وهى تنبحُ وتنبحُ حتى تَأَكَّدَتْ أنها قد أسكَتَتْ آخر الأصداء. ولكنَّ العواء هذه المرة كان موسيقيًّا يشبه النواح ولا يوحى بأى تهديد على الإطلاق. وقلت فى

نفسى إننى أعرف مصـدر هـذه الأصـوات. فلقد سمعتُ أصواتًا تشبهها ذات يوم فى زيارة إلى حديقة الـحيوان فى لندن. إنها أصوات قردة "الـجيبون"، وكان والدى يسميها "الـجيبـون الـجبانة". ولاأزال أجهل سـر هذه التسمية، وإن كان جَرْسُ الألفاظ يستهوينى. وربـما كان ذلك هو السبب الذى جعلنى أتذكرها. وقلت لستلا: "ليست سوى قردة الـجيبون! الـجيبون الـجبانة! وهى لن تؤذينا". ولكننى لم أكن واثقًا أننى كنت على صواب.

وكنت أستطيع من الـموقـع الذى وقفـت فيه أن أرى أن الغابة تَخِفُّ كثافة أشجـارها على جانب تل عظيـم يقع على مبعدة من الشاطئ، وخطر لى عندها أننى لو استطعت الوصول إلى الصخور الناتئة الـجرداء عنـد القمة فسوف أتـمكن من مَدِّ بصرى إلى مسافة أبعد فى البحر. أو ربـما كان هناك منزلٌ أو مزرعةٌ إذا ابتعدنا أكثر عن الشاطئ، وقد يكون هنـاك طريقٌ من الطرق، وعندها أَجِدُ من يـمدُّ لى يَدَ الـمساعدة. لكننى قلت فى نفسى: لنفرض أننى غادرت الشاطئ فعادا للبحث عنى، فماذا يكون حالى؟ وقررت أن من واجبى أن أغتنـم تلك الفرصة.

وانطلقتُ أجرى، وستــلا أرتــوا فى أعقابى، وسرعان ما وجدت نفسى فى ظل الغابة الرطيب. واكتشفت مسلكًا

ضيّقًا صاعدًا فى التل، ورأيت أنه يـمثل الوجهة الصحيحة. وهكذا سرت فيه جريًا ثم أبطأْتُ السرعة عندما أصبح التلُّ شديد الانحدار. كانت الغابة عامرة بالكائنات الـحية. كنت أسمع وقوقة الطيور وصرخاتها عند ذوائب الأشجار العالية من فوقى، وأصوات العواء القديـم ينقلها الهواء كأنها النواح من خلال الأشجار، وإن بدا أننى ابتعدت عنها الآن.

ولكن مصدر قلقى لم يكن أصوات الغابة، بل العيون! إذ شعرت بأن ألف عين مستطلعة تراقبنى. وأظن أن ستلا شعرت بذلك أيضًا، إذ إنها التزمت بصمت غريب منذ أن دخلنا الغابة، وكانت دائمًا ما تتطَلَّعُ إلـىَّ طلبًا للاطمئنان والراحة. وبَذَلْتُ قصارى جهدى فى ذلك، لكنها كانت تشعر أيضًا أننى كنت خائفًا.

ولكن مسيرتى التى كنت أظنها جولة قصيرة بدت لى الآن رحلة كبيرة فى داخل تلك الأرض، فبعد أن خرجنا مُنْهَكَيْن من وسط الأشجار، صعدنا بصعوبة وجَهْدٍ جهيد ركامًا صخريًا حتى استطعنا أخيرًا أن نقف فوق القمة.

كانت الشمـس الساطعة شديـدة الـحرارة. ولم أكن قد أحسست بحرارتهـا اللافحـة حتى تلك اللـحظـة. وألقيت نظرى على الأفق كله. وأنعمت النظر حتى أرى إن كان هناك شراعٌ ما يلوحُ على البعد، لكننى لم أشاهدْ شيئًا. ثم قلتُ فى

نفسى: فلنفرض أننى شاهدت شراعًا ما، ماذا يمكننى أن أفعل؟ لم أكن أستطيع إشعال نار، فليست معى أعواد ثقاب. كنت أعرف أن إنسان الكهوف كان يُشْعِلُ النار بحكّ العصىّ بعضها بالبعض، لكننى لم أجرب ذلك من قبل. ونظرت حولى الآن فى كل اتجاه. البحر. البحر. البحر. لا شىء سوى البحر من جميع الاتجاهات. كنت فى جزيرة. وأنا وحدى هنا.

لم يكن يبدو أن الجزيرة يزيد طولها على ثلاثة كيلومترات أو أربعة، لا أكثر. وكان شكلها يشبه قليلاً حبة فول سودانى طويلة، وإن كانت أَعْرَضَ فى جانب منها من الجانب الآخر. ورأيت على كل جانب منها شاطئًا يمتد كأنه شريط أبيض لامع، وفى آخرها تل آخر، وجوانبه أشد انحدارًا وتنمو عليها غابات أشد كثافة، لكنه لا يبلغ ارتفاع التل الذى أقف فوقه. وكانت الجزيرة كلها تبدو مغطاة تمامًا بالغابات، باستثناء القمة الجرداء لكل من هذين التَّلَّيْن. وحسبما استطعت أن أرى، لم أجد أى دليل على أيَّة حياة بشرية. وأنا أذكر الآن - حتى أثناء وقوفى هناك فى أول صباح أقضيه فى ذلك المكان، وقد غمرتنى المخاوف من عواقب موقفى الرهيب - أننى قلت فى نفسى ما أروع تلك الجزيرة، فهى كالزمردة الخضراء فى إطار أبيض، والبحر يحيط بها من

كـل مكـان، بلـون أزرق حـريـرى متلألئ. ومن الغريب أننى لم أشعر إطلاقًا بالاكتئاب، وربـما كان الـجمال الفذ لذلك الـمكان هو الذى أتانى بالتسرية والراحة.

ومن الغريب أيضًا أننى أحسست، على العكس من ذلك، بالزهو! كنت على قيد الـحياة! وكذلك كانت ستلا أرتــوا! لقد نـجونا!

وجلست فى ظل صخرة كبيرة. وقامت قــردة الـجيبون بتشكيل جـوقة إنشاد جديدة من العـواء والنعيب فى الغابة، وجَعَلَتْ جماعةٌ من الطير ذاتُ أصواتٍ جَشَّاءَ تُرَدِّدُ صياحًا كالصليـل من خميـلة الأشجـار تـحــت موقعنا ثـم طارت فعبرت الـجزيـرة لتحـطَّ فوق الأشجـار القائمـة على جانب التل الـمقـابـل.

وقلت لستلا: "سنكون بخير! أمى وأبى سوف يعودان إلينا. لابد أن يعودا. بل من الـمؤكد أن يعودا. سوف تُشفى والدتى ويعودان إلينا. لن تتركنا هنا. سوف تعثر علينا وسوف تَرَيْن. ليس علينا إلا أن نواصل ترقبنا لهما - وأن نظل على قيد الـحياة. الـماء! سوف نـحتاج إلى الـماء. ألا تـحتاج إليه هذه القِرَدَةُ؟ كل ما علينا هو أن نـحاول العثور عليه، لا أكثر. ولابد أن يكون هنا أغذية أيضًا - فواكه أو بندق، أو أى شىء. ومهما يكن ما تأكله القردة فسوف نأكله".

وساعدنى التعبير بصوت عالٍ عن أفكارى لستلا، وأعاننى على إخمــاد الذُّعــر الذى كان يدهمنى الآن فى موجـات. وأما أهم ما ساعدنى على تـحمل تلك الساعات الأولى فى الـجزيرة، فكان صحبة ستلا لى.

بدا لى من الـمعقول ألا أغوص فى أعماق الغابة فورًا بحثًا عن الـماء، والـحق أن خوفى كان يـمنعنى على أية حال، بل أن أستكشف منطقة الشاطئ أولاً، فربـما عثرت على جدول أو نهر يصب فى البحر، وإذا صادفنى بعض الـحظ فربـما وجدت شيئًا أستطيع أن آكله أيضًا.

وانطلقْتُ مستبشرًا، هابطـًا الركام الصخــرى وَثْبًا كأننى من الــماعــز الـجبلى. وقال لى عقلى إننا نستطيــع أن نعيـش حيث يعيش القـرود. وجعلت أقــول ذلك لنفسى. وسـرعان ما اكتشفتُ أن الطريق الذى يتوسط الأشجار لـم تكن فيه أية نباتات تؤكل. شاهدتُ فعلاً فواكه من نوع ما، أو ما بدا لى أنه فواكهُ على أية حال. كانت هناك أشجار جوز الهند أيضًا، لكنه كان من الـمستحيل تسلقها. كان طول بعضها يزيد على ثلاثين مترًا، والبعض الآخر يزيد على ستين. لـم أر فى حياتى قط مثل هذه الأشجار العملاقة.

كانت الـخميلة الـمتشابكة الأغصــان تـمثــل الـمأوى الـمنشود هربًا من قيظ النهار، على الأقل، ومع ذلك فقد

غدوت أشعر بالعطـش الشديد، وكذلك غدت ستلا. كانت تـمشى بجوارى بخطًى خافتـة طـول الطـريق، وقد أخرجت لسانهـا. كانـت ترمقنـى بنظـرات الألـم كلما التقـت عيـوننا. لكننى لم أكن أستطيع التسرية أو التخفيف عنها.

وعدنا إلى شاطئنا من جديد ثم انطلقنا نطوف بالـجزيـرة، ملتزمين قدر الطاقة بحافة الغابة، حتى نسير فى الظل. لكننا أيضًا لم نـجـد أى جـداول. ورأيت من جديد فواكه كثيرة، لكنهـا كانـت فى أشجـار بالغـة الارتفاع، كما كانت جذوعها ملسـاء ناعمـة من الـمحـال تسلقهـا. وعـثرت على كثير من ثمار جـوز الهنـد على الأرض، ولكنها كانت دائمًا مكسـورة ومفتوحة وخاوية.

وعنـدما وصـلنا إلى قـرب نهايـة الشـاطئ اضطُررنا إلى أن نضرب فى شعـابِ الغـابة نفسـها. وهنا وجـدت طريقًا ضيقًا أستطيع السـير فيه، وأصْبَحَتِ الغابة فى هذه اللـحظة صَمَّاءَ ظلماء تنذر بالأخطار. توقفتَ أصوات العواء، وحل محلها شىء أشد إنذارًا بالشر: أصـوات ارتـجاف أوراق الأشجار، وقعقعة تكسير الغصون، وخشخشات خفية مفاجئة، وكانت جميعًا قريبة منى وتحيط بى فى كل مكـان. وعـرفت، بل أصبحت على ثقة تامة، أن هناك عيونًا تراقبنا. كان هناك من يقتفى خطانا.

وأسرعت الـخُطَى وأنا أحاول قدر الطاقة أن أبتلع مخاوفى. وجالت بخاطرى صُوَرُ قِرَدَة الـجيبون التى رأيتها فى حديقة الـحيوان، وحاولت أن أَقنعَ نفسى بأنها كانت تبدو بريئة أبعد ما تكون عن إيذاء أحد. وقلت فى نفسى: لسوف تتركنا وما نحن فيه ولن تهاجمنا أبدًا. إنها لا تأكل لحم البشر. ولكنه عندما زاد اقتراب أصوات الـخشخشة، وزاد ما يكمن فيها من نُذُر الـخطر، ازدادت صعوبة إقناع نفسى بما أقول. وبدأتُ أجرى، وظللتُ أجرى حتى انتهى الطريق بنا إلى الصخور، إلى ضوء النهار الرحيم الـجميل، ورأيتُ البحر من جديد.

كان هذا الطرف من طرفَى الـجزيرة يبدو ساحة تناثرت فيها الـجلاميد الهائلة القائمة مثل الصخور السامقة التى سقطت على طول البحر. وجعلنا نثب من جلمود إلى جلمود، وقد ركَّزْتُ بصرى بحثًا عن قطرات الـمياه التى يـمكن أن تصبح جدولاً يجرى بين الصخور منحدرًا من الغابة العالية، لكننى لم أجد شيئًا.

وشعرتُ آنذاك بالإرهاق الشديد. فجلست لأستريح، وقد جَفَّ حلقى وأحسستُ برأسى ينبض ويخفق، وعَذَّبَتْنى خواطر اليأس فقلت ربما أموت عطشًا وربما مَزَّقَتِ القرودُ جسمى وقَطَّعَتْنى إرْبًا إرْبًا.

وَتَطَلَّعَتْ عينا ستلا إلى عينىّ، فقلت لها: "لا بد أن يكون هنا ماء. لابد." وقالت عيناها: إذن، ماذا تفعل بجلوسك هنا تتأسى على حالك؟

أرغمْتُ نفسى على الوقوف وواصلتُ المسير. كانت مياه البحر فى الغدران بين الصخور باردة ومغرية، وذقتها، لكنها كانت مِلْحَةً ومُرَّةً غليظة، فلفظتُها من فمى فورًا. كل من يشربُها يصابُ بالجنون. كنتُ متأكدًا من ذلك.

كانت الشمس قد هبطت فى السماء عندما وصلنا إلى شط البحر على الجانب الآخر من الجزيرة، ووفقًا لحساباتى لم نكن قطعنا سوى نصف المسافة حول الجزيرة. كان هذا المكان أكبر كثيرًا مما بدا لى من موقعى فوق التل السامق هذا الصباح. وعلى كثرة ما بحثتُ وفتشتُ لم أجدْ أىَّ ماء، ولا طعام. لم أكن أستطيع الاستمرار فى السير، ولا ستلا. كانت ترقد متمددة بجوارى على الرمال وهى تلهثُ من فَرْط الجَهْد. كان لابد لنا من قضاء الليل حيث كُنَّا. خطرَ لى أن أدخلَ الغابة قليلاً حتى أرقدَ على الأرض تحت الأشجار، وقد أستطيع أن أصنع لنفسى فِراشًا من الأوراق الجافة اللينة، فأرضيَّة الغابة زاخرةٌ بها، ولكننى لم أجرؤ على المغامرة بالدخول، خصوصًا وظلال الليل تهبط بسرعة على الجزيرة.

وكانت أصوات العواء قد بدأت من جديد فى أقاصى الغابة، فبدت أنشودة مساء رخيمة أخيرة، واستمر ذلك الغناء دون توقف حتى غشى الظلام الجزيرة كلها. وكانت أصوات أزيز وأنين الحشرات (أو ما افترضت أنها حشرات على أية حال) تصلنى من الغابة. وسَمِعْتُ أصوات نَقْرٍ أجوف، مثل أصوات طائر نقار الخشب إذا انهمك فى نقر جذع شجرة بمنقاره. وسَمِعْتُ أصوات صَرِير وخَدْش ونَخْر وحَزٍّ مثل نقِيق الضفادع. كانت فرقةُ الغَابة الموسيقية كلها تضبط أوتارها. ولكن مصدر خوفى لم يكن الأصوات، بل العيون الخفية مثل الأشباح. كنت أريد أن أبتعد قدر طاقتى عن تلك العيون، فوجدت كهفًا صغيرًا فى أحد طرفَى الشاطئ، أرضيته من الرمل الجاف.

واستلقيت على الأرض وحاولت النوم، ولكن ستلا لم تسمح لى بالنوم، إذ ظلت تئن إلى جوارى من ألم الجوع والعطش، فلم أستطع أن أنام إلا نومًا متقطعًا.

كانت الغابة تَطِنُّ وتُوَقْوِقُ وتَنْعَقُ، ولم يتركْنى البعوضُ طولَ الليل كذلك. كان يَئِزُّ فوق أذنىَّ فيصيبنى بالجنون. وسَدَدْتُ أذنىَّ بيدىَّ حتى لا أسمعَ أصواته. وتكوَّرْتُ حول ستلا، محاولاً أن أنسى أين كنت وأن أُغْرِقَ نفسى فى أحلامى. وتذكرت عندئذ أن اليومَ عيدُ ميلادى، وذكرت

آخر عيد ميلاد لى فى الوطن مع إدى ومع مَطْ، وحفل الشواء الذى أقمناه فى الحديقة، وطِيب رائحة السجق الرائعة. وخَلَدْتُ إلى النوم أخيرًا.

واستيقظتُ فى الصباح وأنا أشعرُ بالبرد والجوع وأرتجف، وقد مَلأَتْ جسمى لَدَغَاتُ البعوض. واستغرقْتُ لحظاتٍ فى تذكُّر أين كنتُ وكلَّ ما حدث لى. وغلبنى فجأة إحساسى بأهوال الواقع المرير هولاً بعد هول: وحدتى التامة، وانفصالى عن أمى وأبى، والأخطار المحيقة بى.

وبكيتُ بصوتٍ عالٍ لما أنا فيه من شقاء، حتى أدركتُ أن ستلا قد ذهبَت. فخرجت أجرى من الكهف، لكننى لم أجِدْها فى أى مكان. ناديتُها. وأصَخْتُ السمع، ولكن قرود الجيبون فقط هى التى أجابتنى. ثم استدرتُ فرأيتُها. كانت تقف على الصخور العالية المطلة على الكهف، شبه مختفية عن نظرى، ومع ذلك فقد استطعتُ أن أرى أنها قد انحنتْ برأسها على الأرض. كانت بوضوح تركز اهتمامها على شىء ما، ومن ثَمَّ صعدتُ الصخور لاستجلاء الأمر.

سمعتُ صوتَها وهى تشربُ قبل أن أصلَ، إذ كانت تلعقُ الماء بانتظام وبصوت عالٍ كشأنها دائمًا. بل إنها لم ترفعْ رأسها حين اقتربْتُ منها. وعندها رأيتُ أنها تشرب من وعاء صغير - وعاء من الصفيح القديم. ثم لاحظتُ وجود شىء غريب على رفٍّ مسطح من الصخر فوقها.

وتركت ستلا تهنأ بالارتواء وتسلَّقْتُ صخورًا أخرى لفحص الـموضوع. كان على الرف وعاءٌ آخر به ماء، وبجواره بعض خوص النخيل الـمرصوص على الصخرة وشبه مغطى بوعاء مقلوب من الصفيح. وجلستُ وشربتُ الـمـاء فـورًا دون أن أتوقف لالتقاط أنفاسى. لم أشـرب فى حياتى مـاءً أطيب مذاقًا من هذا الـمـاء. كنت لا أزال ألهث؛ لكننى أزحت الغطاء الصفيح. سمك! شرائح رقيقة من السمك الأبيض شبه الشفاف، عشرات منها، مصفوفة بعناية فوق الـخوص، وخمس أو ست بل سبع موزات حمراء صغيرة. موز أحمر!

بدأت بأكـل السمـك، متلذذًا بكل شريحـة ثمينـة على حدَة، لكننى كنت، حتى أثناء الأكل، أنظر حولى بحثًا عن أى ارتـجاف لأوْراق الأشجار على حافة الغابة ينبئنى بـما وراءه، أو عن آثار أقدام فى الرمال. لكننى لم أر شيئًا. ولكنْ لابد أن شخصًا ما قد أحضر هذا كله من أجلى. لابد أن يكون هناك شخص ما، لابد أن شخصًا ما يراقبنى. ولم أكن واثقًا إن كان علىَّ أن أخاف من هذا الاكتشاف أو أن أطير فرحًا به.

لكنَّ ستلا كانت تقاطع أفكارى. كانت تُصْدر نشيجًا يثير الأسى وهى واقفة تنظر إلـىَّ من الصخرة من تـحتى، وكنت أعرف أنها لا تطلب الـحب أو التَّسْـرية. كانت تلتقـط كل

شريحة سمـك أُلقيها إليها، وتلتهمها دفعة واحدة وتنتظر شريحة أخرى، وقد مال رأسها إلى جانبها، وانتصبت إحدى أذنيها. وبعد ذلك كنت آكل شريحة وألقى لها بشريحة. لم تكن نظراتها الـمستعطفة تسمح لى بغير هذا.

لم يكن السمك مطبوخًا، لكننى لم آبه. لم يكن جوعى الشديد يسمح لى بأن آبه، وكذاك كانت ستلا. أما الـموز الأحمر فقد احتفظْتُ به لنفسى. وأكلتُ جميع الـموزات. لم تكن مثل الـموز الذى اعتدناه فى الوطن، بل كانت ذات مذاق أحلى بكثير، وأكثر عصارة، وأشهى وألذ كثيرًا. كان يـمكننى أن آكل عشر موزات أخرى.

وعندما انتهيت من الطعام وقفت وألقيت نظـرة فاحصة على الغابة. إن من أَسْدَى إلـىَّ هذا الـمعروف - مهما يكن، ورجلاً كان أو امرأة - لابد أن يكون قريبًا منى. كنت واثقًا أنه لا يوجد ما يدعونى للـخوف. وكان علىَّ أن أتصل به اتصالاً ما، فوضعت يدى كالبوق حول فمى وجعلت أهتـف مـرارًا "شكرًا لك! شكرًا لك! شكرًا لك!" وتَردَّدَتْ أصداء كلماتى فى أرجاء الـجزيرة. وفجأة سَرَتِ الـحياة فى الغابة وانطلقت الأصوات: نشاز عظيـم من الغناء والنعيب والعواء والنعيق والنقيق. وجَعَلَتْ ستـلا تـرد عليها بنباحها الشديد. وأما أنا فأحسست بالفـرح، والزهـو، والسعـادة، والنشـوة. وجعلـت أتواثـب وأنا أضحـك وأضحـك، حتى

تـحولت ضحكاتى إلى دموع الفرح. لم أكن وحدى فى هذه الـجزيرة! ومهما يكن ذلك الشخص فهو يُضْمِرُ لى الود. وإلا فلماذا أطعمنا؟ ولكن لماذا لا يُظهر نفسه؟

وقلت فى نفسى إنه لابد أن يعود ليأخذ الأوعية. وقررت أن أتـرك له رسـالـة. وجـدت حجـرًا حـاد الطـرف فانحنيت، ونقشت رسالتى على الصخـرة بجـوار الأوعية، وهى: "*شكرًا لك. اسمى مايكل. سَقَطْتُ من سفينة. من أنت؟*".

وقررت بعد ذلك أن أبقى على الشاطئ طول ذلك النهار، قريبًا من كهفى والصخرة التى تطل عليه حيث ترك صاحبنا السمـك لنا. لا بـد ألا تغفـل عينـى عنهـا، حتى أستطيـع على الأقـل أن أشاهـد الذى سـاعدنى.

وانْطَلَقَتْ ستلا تـجرى أمامى فَنَزَلَت البحر، وهى تنبح لى كى تدعـونى لمشاركتها. لم أكن بحاجة إلى إقناع. فألقيت بنفسـى فى الـمـاء وأنا أتواثـب وألهـو وأهتـف وأضـرْبُهُ بيَدَىَّ ورجـلىَّ، وكانت هى أثنـاء مرحـى الطليـق تنطلـق سابحـة لا تلوى على شىء. كانت تبدو عليها سيـماء الـجد دائمًا عندما تسبح، رافعة ذقنها، وتضرب الـماء بقوائمها فى ثقة.

كان البحـر ساجيًا هادئـًا ولا تكـاد تـرى فيـه أدنى حـركـة للموج. لم أجرؤ على السباحة فى الـمنطقـة العميقـة، فلقد نلْتُ ما يكفينى العمر كله من جَرَّاءِ ذلك! وخرجت من البحر أشعر بالنظافة والانتعاش والـحيوية - خرجت شخصًا

جديـدًا. كان البحـر مصـدر شفـاء عظيـم. كانت آثـار لـذع البعوض ما زالـت موجودة ولكنها لـم تعد تؤلـمنى.

وقررت اكتشاف الـمزيد من منطقة الشاطئ، وحتى آخره إذا استطعـت، بشـرط أَلاَّ يغيبَ كهفـى عن بصـرى لـحظـة واحدة. كانت هنا قواقعُ بحريةٌ، ملايينُ القواقع، بعضها ذهبى اللون وبعضها وردى، ملقاةً فى صفوف طويلة بحذاء الشاطئ. وقبل وقت طويل شاهدت ما بدا لى من مسافة بعيدة نُتُوءًا صخريًّا مسطحًا لا يخرج إلا قليلاً عن مستوى الرمال، وكانت ستلا تخمش الأرض بحماس فى طرفه، واتضـح أنه لـم يكن من الصخـر على الإطـلاق بـل كـان لـوحًا معـدنيًّا طويلاً علاه الصدأ - والواضح أنه كان كل ما بقى من جانب هيكل سفينة غدا الآن دفينًا فى أعماق الرمال. وقلت فى نفسى تُرى ماذا كانت تلك السفينة، وكم مضى من الزمن على تـحطمها. تُرى هل دَفَعَتْها عاصفة رهيبة نـحو الـجزيرة؟ هل نـجا من ركابها أحد؟ أيـمكن أن يكون أحدهم مقيـمًا هنا حتى الآن؟ وانحنيتُ على الرمل وتحسستُها بيدى. وعندها لاحظت وجود قطعة من الزجاج الشفاف فوق الرمل على مسافة قريبة، وربـما كانت ما بقى من إحدى الزجاجات. كانت بالغة السخونة فلم أستطع أن ألمسها، ناهيك بأن أمسكها بيدى.

وخَطَرَ لى خـاطرٌ كالبرق. كان إدى قـد علمنى الطريقـة. وكنا جربناها فى فناء الـمدرسة، مختبئين خلف صناديق

القمامة حيث لا يشاهدنا أحـد. قطعة من الورق وشظية من الزجاج والشمس. وأشعلنا النار! لم تكن لدى أية أوراق، ولكن أوراق الشجر تصلح. وانطلقتُ أجرى على الشاطئ وجمعتُ ما استطعت أن أَجِدَهُ من تحت الأشجار: قطعٌ من العصيِّ والأغصان وشتى أنواع ورق الشجر - ما رقَّ منها حتى أصبح مثل ورق الكتابة وجـفَّ جفافًا تامًّا. ووضعتُها فى كومــة صغيــرة على الرمل وجَلَسْتُ بجوارها. وأمسكتُ بقطعـة الزجـاج فى يدى بالقـرب من ورق الشجـر وضبطت الزاوية حتى تـجمع ضوء الشمس. كان علىَّ أن أجلس ساكنًا، بل ساكنًا تـمامًا، وأنتظر أول بشائر الدُّخان.

وجلست طويلاً. وجاءت ستلا فأزعجتنى، إذ كانت تريد أن تلعب، فدفعتُها بعيدًا عنى. وذَهَبَتْ آخر الأمر مـمتعضةً واجمة، وجعلت تتـمدد وهى تتنهد فى ظل أشجار النخيل. كانت حــرارة الشمــس حارقــة، ولكنْ لم يحـدث شىء. وبدأت ذراعى تؤلـمنى، وهكذا أقمتُ هيكلاً من الغصون فوق أوراق الشجر، ووضعتُ الزجاجة فوقه، وقبعتُ بجواره وانتظرت. ولكن لم يحدث شىء أيضًا.

وفجأة هَبَّتْ ستلا من رقادها، وفى حَلْقها صوت زمجرة عميقة. والتفتتْ وانطلقتْ تـجرى نـحوى، ثم استدارت كى تُوَجِّـهَ نباحها الغاضب إلى الغابة. ثم رأيت ما أزعجها.

كان تـحت الأشجار ظل يتحرك قادمًا بخُطى متثاقلة نـحونا. كان قــردًا، قــردًا عمـلاقـًا. لم يكن من قــرود الـجيبون على الإطلاق. كان يـمشى الهُوَيْنا على أطرافه الأربعة، لونه بُنِّى، بُنى ضارب إلى الصُّفرة. كان سِعْلاةً، أو ما يُسمى أيضًا إنسان الغابة، وكنت واثقًا من ذلك. وقعد ذلك القرد على مبعدة خطوات معدودة منى وأخذ يحدق فىَّ. لم أجرؤ على الـحركة. ولـما شاهد ما يكفيه، حكَّ رقبته دون اهتـمام واستدار، ثم عاد يسير على أربع ببطءٍ عائدًا إلى الغابة. واستـمرت ستلا فى زمجرتها حتى بعد أن مضى بفترة طويلة.

إذن كانت هنا السعالى أيضـًا إلى جـانب قِـرَدَة الـجيبون. بل ربـما كانت السـعالى هى التى كانت تصـدر أصـوات العـواء لا قــرود الـجيبــون. ربـما كنت مخطئًا منذ البداية. كنت شاهدت ذات يوم فيلمًا يلعب فيه كلينت إيستوود دور البطـولة ويصور أحــد السعالى. كان ذلك القـرد فى الفيلم وَدُودًا إلى حد كبير. وتـمنيت أن يكون هذا مثله.

ثم رأيت الدُّخَان. شمـمتُ رائحة الدخان. ظهر بصيصُ نار وسط كومة الأوراق التى وضعتُها، فقبعتُ على الفور وجعلت أنفخ فيها نفخًا لطيفًا. وتحول البصيص إلى ألسنة لهب، فأَضَفْتُ الـمزيد من وَرَقِ الشجر، ثم وضعتُ غصنًا جافًا أو غصنين، ثم بَعْضَ الأغصانِ الكبيرة. وأشعلتُ النار! أشعلتُ النار!

وانطلقْتُ مسرعًا فى الغابة فجمعتُ كل الرُّكام الذى وَجَدْتُه، كل قشور جوز الهند الجافة، وكل ما وجدته من حطب. وجعلت أتحركُ جيئةً وذهابًا حتى أصبحتِ النار تتأجج ولها عجيج مسموع كالجحيم! كان الشرر يتطاير عاليًا فى الهواء، والدخان يرتفع وسط الأشجار من خلفى. وعرفت أننى لا أستطيع أن أستريح الآن، فالنار تحتاج المزيد من الحطب، وقِطَعًا أكبر من الخشب، بل ومن فروع الأشجار، وأنَّ علىَّ أن أذهب لإحضار ذلك حتى أتأكد أننى جمعت ما يلزم لاستمرارها، وجمعت الكفاية من المخزون.

ولاحظتُ أن ستلا رفضت أن تصحبنى إلى الغابة، وبَقِيَتْ فى مكانها تنتظرنى بجوار النار. وكنت أعرف السبب خير المعرفة، بل إننى كنت أنا نفسى أَحْذَر عودة السعلاة، لكننى كنت أركز انتباهى كله على النار فلم أكترث كثيرًا لذلك القرد.

كانت كومةُ الحطب التى جمعتها قد أَصْبَحَتْ هائلة، لكننى مع ذلك ذهبتُ إلى الغابة مرة أخيرة، خشية أن تلتهم النار كل شىء فتنطفئ بأسرع مما توقعت. وكان علىَّ أن أذهب إلى مسافة أبعد فى الغابة، وهو ما استغرق وقتًا أطول.

كنت خارجًا من وسط الأشجار، وقد حملتُ مقدارًا كبيرًا من الحطب بين يدىّ، حين أدركتُ أن الدخان المتصاعد

قد قَـلَّ، وأن ألسنـة اللهــب اختفــتْ. وعندها، ومن خلال الدخان، شاهدتُ القرد، تلك السعلاة. كان يقبع على الأرض، وقـد أخـذ يُهيــلُ الرمـل على النار. ونهض وسار نـحوي، فانْحَسَرَتْ عنه سحائبُ الدخان واتضحــت حَقِيقَتُــه. لم يكن سـعـلاةً على الإطلاق: كان رجلاً.





الفصل الخامس

أنا، كنسوكى

كان رجلاً ضئيل الجُرْم، لا يزيد طوله عن طولى، ولم أشهد فى حياتى عجوزًا أكبر منه سنًّا. لم يكن يرتدى إلا سروالاً باليًا ذا حزام فى وسطه، وتحت الحزام سكينٌ كبيرة. كان نحيفًا أيضًا. وفى بعض أجزاء جسمه - تحت إبطَيْه، وحول رقبته وبطنه - كان جلدُ بشرته النحاسية مجعدًا مطويًّا كأنما انكمش جسمه وتقلص داخل جلده. وأما الشعرات القليلة فى رأسه وذقنه فكانت طويلة ونحيلة وبيضاء.

أدركت على الفور أنه ثائر، فذقنه ترتعش، وعيناه اللتان تَدَلَّى جفناهما غاضبتان ترمقانني بنظرات اتهام. وصرخ صرخة حادة في وجهي وهو يقول: "*دامِيدا! دامِيدا!*". كان جسده كله يرتجف من فرط الغضب. وتراجعت وهو يهرول نحوي على الشط، مُلَوِّحًا بعصاه في انفعال شديد، ويخاطبني بحماس. وعلى الرغم من تقدمه في السن ونحافته الشديدة، كان يتقدم نحوي بسرعة، بل يكاد يجري. وهتف من جديد "*دامِيدا! دامِيدا!*" لم أكن أعرف معنى تلك الكلمة، وربما كانت صينية أو يابانية.

كنت أوشك أن أستدير وأجري عندما رأيت ستلا التي امتنعت بغرابة عن أن تنبحه على الإطلاق، تتركني فجأة وتجري متواثبة نحوه. كان شعر رقبتها منتصبًا، لكنها لم تكن تزمجر، ودهشت حين شاهدتها تحييه كأنها تحيي صديقًا قديمًا لم تره من زمن طويل.

وحين وقف لم يكن يبعد عني سوى خطواتٍ معدودة. وقفنا نُحَدِّقُ في بعضنا البعض صامتيْن لحظات قليلة. كان يتكئ على عصاه، ويحاول التقاط أنفاسه. ثم سألني: "*أمريكاچين؟ أمريكاچين؟ أمريكاچين؟ إيكوكويين؟* بريطاني؟"

قلت له: "نعم"، وأحسست بالراحة لأنني فهمت شيئًا ما أخيرًا. وقلت: "إنجليزي. أنا إنجليزي."

وبدا أنه يكافح حتى يُخْرِجَ الكلمات من فمه، وهو يقول: "خطأ. النار خطأ. تفهم؟ لا نار". وبدا أنه أقَل غضبًا الآن.

"ولكنْ والدتى، والدى، قد يشاهدان النار، يشاهدان الدخان" كان واضحًا أنه لم يفهمنى. فأشرت إلى البحر لأشرح له الأمر قائلاً: "هناك! إنهما هناك. سوف يشاهدان النار ويحضران لأخذى".

وعادت لهجته العدوانية على الفور فصرخ قائلاً: "*داميدا!*" وهو يُلَوِّحُ بعصاه فى وجهى. "لا نار!" وظننت لحظة أنه سوف يهاجمنى، لكنه لم يفعل، بل بدأ ينبش الرمل بعصاه عند قدمىّ. كان يرسم خطوط شىء ما، ويتفوه بألفاظ غير مفهومة طيلة الوقت. وبدا ما رسمه فى البداية مثل ثمرة فاكهة من نوع ما، ربما مثل لوزة، أو حبة الفول السودانى. وعندها فهمت. كانت خريطة للجزيرة. وعندما انتهى جلس على ركبتيه بجوار الرسم، وأهال كومتين من الرمال، كومة عند كل طرف، كانتا تمثلان التَّلَّيْن. وبعدها رسم، بدقة شديدة، خطًّا مستقيمًا يقسم الرسم نصفين ويفصل نصف الجزيرة الأصغر عن نصفها الأكبر.

وقال: "أنت يا غلام. أنت هنا". وأشار إلى كهفى فى أحد طرفَى الشاطئ. وأضاف "أنت"، وهو يغرس إصبعه فى كومة الرمل التى تمثل التل الذى أقيم عنده. ثم بدأ يكتب شيئًا على الخريطة الرملية كلها. لم تكن الحروف حروفًا على

الإطلاق، بل كانت رموزًا - شتى ألوان العلامات والأهـرام والصلبان والـخطوط الأفقية والـمائلة والـخربشة - وكتـب ذلك كلـه فى الاتـجاه العكسى، فى أعمـدة، من اليـمين إلى الشمال.

وجلس على عَجُـزِه ودق صـدره، قائـلاً: "كنسـوكى. أنا كنسوكى. جزيرتى". ثم هوى بيده على الرسم بحدة مثل السكين فقسم الـجزيرة قسمين، قائلاً: "أنا، كنسوكى، هنا. أنـت يا غلام هنا". ولـم يكن لدىَّ الآن أدنى شك فيـما يعنيه. وفجأة وقـف من جـديد وأشـار لى بعصاه أن أبتعد. "اذهب ياغـلام. لا نـار. *دامبدا*. لا نار. هل تفهم؟".

لم أناقشْه، بل مضيتُ فى سبيلى فورًا. وعندما جرؤتُ بعد فترة أن ألتفتَ وأنظر، كان لايزال راكعًا بجانب ما بقى من النار، وهو يهيل الـمزيد من الرمال عليها.

كانت ستـلا لاتـزال فى صحبتــه. فصفَّرْتُ أسـتـدعيها. وجاءتنى، وإن كان ذلك بعد فترة. كان من الواضح أنها ترفض مفارقته. كان سلوكها بالغ الغرابة، فلم تكن ستلا أرتوا تأنس فى يوم من الأيــام إلى صحبـة الغـرباء قط! وأحسست أنها خذلتنى، بل وأنها خانتنى قليلاً.

وعندما نظرت إلى الوراء فى الـمرة التالية لم تكن النار تُصْدر أى دخان، فقد انطفأت تـمامًا، واختفى الرجل الهَرِمُ من ناظرىَّ.

ومكثتُ بقية ذلك اليوم فى كهفى. كنت، لسبب ما، أشعر بالأمان فيه. وربما كنت بدأت أعتبره بيتى. لم يكن لى بيت سواه. وأحسست بما يحس به اليتيم، من تخلَّى الناس عنه فأصبح وحيدًا فى الدنيا. كنت أشعر بالخوف، وبالجوع، وبالحيرة الغامرة.

وجلست فى الكهف أحاول أن أجمع شتات أفكارى. ففى حدود ما أعرف - وإن لم أكن واثقًا من صحة ذلك - لم يكن فى هذه الجزيرة سوى اثنين، العجوز وأنا. وفى هذه الحالة، يقول المنطق إنه لا أحد سواه قد ترك لى السمك والموز والماء. ولابد أن يكون ذلك بادرة عطف، دليلاً على الصداقة، أو علي الترحيب؟ ومع ذلك، فإن هذا الرجل نفسه قد نفانى الآن إلى طرفٍ من طَرَفَى الجزيرة كأننى مجذُوم، وبيَّن لى بوضوح وجلاء أنه لا يرغب فى أن نلتقى مرة أخرى. هل ينحصر السبب فى أننى استوقدتُ نارًا؟ كل ذلك يجافى المنطق تمامًا، إلا إذا كان الرجل مخبولاً فقد عقله تمامًا.

وجعلت أتأمل وأتملَّى موقفى طويلاً. لقد ألقت بى السفينة وحدى على جزيرة فى مجاهل الدنيا، وربما كان رفيقى فيها مجنونًا، إلى جانب حشد من القرود التى تعوى (ومن بينها سعلاة واحدة على الأقل) - والله أعلم بما تُخَبِّئُه الغابةُ وتخفيه عنى أيضًا - وملايين البعوض التى

تلتهمنى حيًّا كل ليـلة. كنت واثقًا من شىء واحد: يجب علىَّ أن أهـرب. ولكن كيـف؟ كيـف يـمكننى أن أخـرج من هـذه الـجزيرة إلا إذا استطعت أن أجعلِ إحدى السفن العابرة تنتبه لوجودى؟ البديل أن أبقى هنا لآخر عمرى. وهو ما لا أحتـمل التفكير فيه.

وتساءلت فى نفسى عن الزمن الذى قضاه ذلك الرجل فى الـجزيرة، وعما أتى به إليها أول الأمر. تُرى من هو؟ وبأية سلطة يـمنح نفسه الـحق فى أن يأمرنى وينهانى؟ ولماذا أطفأ النار التى أوقدتُها؟

وتَكَوَّرْتُ فى كهفى، وأغمضتُ عينىَّ، وتـمنيتُ لو عُـدْتُ وحَسْب إلى الوطـن، أو إلى السفينة پيجى سو مع أمى وأبى. وكادت هذه الأحلام الرائعة أن تأتينى بالنوم، ولكن البعوض والعـواء الصـادر من الغـابة سرعان ما عـادا بى إلى الوعى، حتى أواجـه مـن جـديد كل العواقـب الرهيـبة لـما أنـا فيـه من محنـة مُزْريـة.

وخطر لى فجأة أننى سبق لى أن شاهدت وجه الرجل العجوز فى مكان ما. ولم أعرف كيف يكون ذلك. وبينـما كنت راقدًا أُقلِّبُ هذا الأمر على وجوهه، أحسست بقطعة الزجاج فى جيبى تضغط على فخذى. واستبشرت فجأة. كانت زجاجة إشعال النار لاتزال معى. لسوف أوقد النار

من جديد، ولكن هذه الـمرة فى مكان لا يستطيع اكتشافه. لسوف أنتظر مَقْدِم سفينة، ولسوف أنـجـح فى البقاء على قيد الـحياة حتى ذلك الـحين. لقد نـجـح العجوز من قبلى فى هذا الـمكان. فإذا كان قد نـجـح فسوف أنـجـح. وأستطيع أن أعتـمد على نفسى أيضًا، ولن أحتاج إليه.

شعـــرتُ من جديد بالـجـوع والعطـش. سأذهبُ غـدًا إلى الغابة وأُحضر الطعام لنفسى. وسوف أجـد الـماء. وبطريقة ما سـوف أصيـد السمك. فأنـا مـاهـر فى صيـد السمك. وما دمـتُ استطعتُ صَـيْدَ السمك فى ميـاه الـخزان وعلى ظهر السفينة پيجى سو، فسوف أصيدُه هنا أيضًا.

وقضيتُ تلك الليلةَ ألعن أســراب الـحشـرات الطَّنَّانـة التـى تنقـضُّ عـــلىّ، وأصـوات الثرثــرة فى الغابـــة التى لا تسـكـــت، ولا تريدنى أن أسكت. وظللتُ أتصور مياه الـخزان فى خيالى، ووالدتى وهى تضحك لابسةً قبعة ربان السفينة. وأحسستُ بالدموع فى عينىَّ وحاولت ألا أفكـر فيها. وفكرت فى الرجل العجوز، وكنت لا أزال أحاول أن أتذكر اسمه عندما غلبنى النعاس.

واستيقظتُ وعَرَفْتُ على الفـور أنه جاءنا. كان الأمر يبدو كالـحلم. ويبدو أن ستـلا رأت فى منامها الـحلم نفسه، إذ بدأت فورًا تتواثب فوق الصخور الـمطلة على الكهف.

ووَجَدَتْ ما كانت تتوقع بوضوح أن يكون موجودًا – إناء الـماء الـخاص بها وقد امتلأ من جديد. وكان هناك أيضًا، على الرف الصخـرى الـمرتفـع وراءهــا، نفس الصفيحة الـمقلوبة وبجوارها وعـاء الـمـاء الـخـاص بـى، تـمامًا مثلما حدث فى صباح اليوم السابق. كنت أعرف أنه سيكون مـمتلئًا، وكنت أعـــرف وأنا أُزيح الصفيحة أن الطعام سيكون موجودًا.

وجلستُ فوق الصخرة واضعًا ساقًا على ساق، أمضغ بنَهَم شرائح السمك وأُلقى بقطع منه إلى ستلا حتى تلتقطها، وعندها أدركت الـمعنى الذى كان يرمى إليه بذلك تـمامًا. لم نكن أصدقاء، بل ولن نكون أصدقاء. فهو يريدنى أن أبقى على قيد الـحياة، وكذلك ستلا، بشرط أن أتَّبع القواعد التى يضعها. فكان علىَّ أن ألتزم بجانبى من الـجزيرة، وألا أشعل النار أبدًا. كان كل ذلك واضحًا تـمامًا.

ومع تضاؤل أى رجـاء حقيقـى فى الإنقـاذ العاجل، ازداد تقبلى لـحالى يومًا بعد يوم. كنت أعرف أنه لا خَيار لى سوى أن أقبلِ شروطه، وأتَّبع النظام الذى وضعه، مؤقتًا. كان قد وضع الآن الـحـدود الـجغـرافية، إذ رسم على الرمـال خطًّا يـمتد من الغابة إلى البحـر على جانبى الـجـزيرة، وكان كثيرًا ما يُجَدِّدُه، كلما احتاج إلى تـجديد. كانت ستلا تتـجاوزه بطبيعة الـحـال، فلم أكن أستطيـع أن أمنعهـا، لكننى لم أتـجاوزْه. لم تكن لذلك قيـمة. وعلى الرغم من العداء الذى

رأيتُه فى عينيه والسكين الضخمة التى شاهدتها فى حزامه، فلم أكن أتصور حقًّا أنه يـمكن أن يؤذينى يومًا ما. لكننى كنت أخشاه، وبسبب هذه الـخشية، ولأننى كنت أعــرف أننى سأفقـد الكثيــر، لم أكــن أريـــد أن أواجهــه، فهو على أيـة حـال يقـــدم لنا كل ما نـحتاجه من طعـــام ومـاء كل يـوم.

كنت قد بدأت العثور على بعض الثمار الصالـحة للأكل بنفسى، وخصوصًا ثمرة ذات قشرة شائكة (اكتشفت فيـما بعد أن اسمهـا "رامبـوتـان" أى ذات الشَّعْـر). كان طعمهـا لذيذًا لكننى لم أكن أجد ما يكفى منها، كما إن ستلا ترفض أن تأكلها. كنت أحيانًا أجد ثمار جوز الهند السليـمة، ولكن لبنها ولـحمها كثيرًا ما كانا فاسدَى الـمذاق. وحاولت مرة أو مرتين أن أتسلق بعض أشجارَ جوز الهند، لكنها كانت بالغة الارتفاع، وسرعان ما تَوَقَّفْتُ عن الـمحاولة.

حاولتُ صيدَ السمك فى الـمياه الضحلة، بعد أن أعددتُ لذلك حربةً بدائية، وهى عصًا طويلة سَنَنْتُ طرفها بالصخور، ولكن السمك كان يفلت منى لبطء ضربتى. كانت الـمياه تزخر بالأسماك فى حالات كثيرة، لكنها كانت بالغة الصِّـغَر وشديدة السرعة. وهكذا، وسواء شئنا أم أبينا، كنا لانزال فى مسيس الـحاجة إلى حصة الطعام اليومية من السمك والفواكه والـماء التى كان العجوز يأتى بها إلينا.

وكنت قد بحثت فى طـرف الـجزيـرة الذى أقيـم فيه عن الـماء العذب فلم أجد أيًّا منه. وكثيرًا ما خطر لى أن أتخطى الـحدود فأدخل جانب الغابة الـمخصص للعجوز، لكننى لم أجرؤ على ذلك. كنت فى الغالب الأعمّ ألتزم بعدم الابتعاد عن مسالك الغابة.

لـم يكن ما يـمنعـنى من الـمغامـرة بدخـول جانب الغابة الـمخصص للرجل العجوز يقتصر على القوانين التى وضعها، ولا على عواء القِرَدَة - وهو ما انتهيت إلى إدراك أنه تـحذير أو إنذار - بل كان يضم أيضًا خوفى من السعلاة. كان ذلك القرد يبدو هادئًا مسالـمًا، ولكننى لم أكن أستطيع التنبؤ بـما عساه أن يفعل هو وأصدقاؤه إذا وجدونا فى منطقتهم. وكنت أتساءل فى نفسى أيضًا عما تخفيه الغابة عن عينى من مخلوقات أخرى، تتربص بى أو تكمن لى فى الظُّلمة الرطبة داخل الغابة. فإذا كانت الأصوات الدائمة الصادرة من الغابة تصلـح أساسًا للـحكم عليها، قلت إن ذلك الـمكان يزخر بشتى الأنواع الزاحفة من الـمخلوقات الرهيبة.

كان مجرد التفكير فى السعلاة وأهوال مجاهل الغابة كافيًا لردعى، وكافيًا لِوَأْدِ فضولى وشجاعتى. وهكذا التزمتُ فى أغلب الأوقات بالبقاء على الشاطئ، وفى كهفى، وبطريق الغابة الـموصِّل إلى قمة التل الـخاص بى.

ومن موقعى الـمرتفع على ذلك التل كنتُ أستطيع أحيانًا أن ألـمح العجوز. كنت أراه كثيرًا فى الصباح وهو يصيد السمـك برُمْحـه فى الـميـاه الضحـلـة، وكان أحيانًا وحـده، وإن كان الأعَـمَّ أن تصحبه مجموعة من السعالى، وكانت هذه القِرَدَةُ تـجلس على الشاطئ ترقبه، وكان عددها يبلغ ذات يوم أربعة عشر أو خمسة عشر. وأحيانًا كان يحمل أحد صغارها على ظهره. وكان حين يـمشى وسطها، يبدو كأنـما كان واحدًا منها.

وحاولت مرارًا أن أظل مستيقظًا حتى يأتى العجوز ليلاً بالطعام، لكننى لم أُفلـح قط. لم أستطعْ قط أن أسمعه على الإطلاق. ولكننى كنت أجد الـماء كل صباح، والسمك (وكثيرًا ما كان بطعم السمك الـمُدَخَّن هذه الايام، وهو ما كنت أفضله). ولكن الفاكهة كانت تختلف من يوم ليوم. وكانت كثيرًا ما تفـوح برائحة غريبـة لا تستهوينى إطلاقًا. لكننى كنت آكلهـا. فإلى جانب الـمـوز وجوز الهند والنبق، كان يترك لى أحيانًا فواكه تُسمى "فاكهـة الـخبـز" و"فاكهـة البحــارة" (وإن كنــت آنــذاك لا أدرى، بطبيعــة الـحــال، ما يـمكن أن تكون). كنت آكل كل شىء، ولكن ليس بنفس النَّهَم القديـم، فكنت أحاول ادخار بعض الفواكه للعشــاء. لكننى لم أكن قادرًا قط على إجبار نفسى على ادخار الـموز الأحمر، إذ كان مذاقه الرائع يرغمنى على التهامه فورًا.

كان كابوسى الـمتكرر هو البعوض ليلاً. فمنذ أن يبدأ الغسق، يشرع فى البحث عنى، فيئزُّ ويَطِنُّ حولى، ويأكلنى حيًّا. لم أكن أجد مهربًا منه. كانت كل ليلة عذابًا طويلاً مـمدودًا، وكنت فى الصباح أحكُّ بشرتى ألـمًا حتى أجرحها فى عدة أماكن. وقد تورمت بعض اللدغات، وخصوصًا فى رجلىَّ، فأصبحتْ دمامل حمراء لها رءوس صفراء، ولم أكُنْ أجد الراحة من الألم إلا بغمر جسدى كثيرًا فى مياه البحر الباردة.

وحاولت الرقاد فى كهف آخرَ، أَعْمَقَ وأظلم، ولكن الرائحة كانت بشعة. وما إن اكتشفت أنه يزخر بالـخفافيش، حتى تركْتُه على الفور. وأينـما رقدتُ كان البعوض لا يتأخر فى اكتشاف مكانى. وساء الـحال حتى أصبحتُ أخشى مَقْدِمَ الليل كل يوم، وكنت أتوق إلى الصباح، إلى برودة البحر وبرد النسيـم على قمة التل الذى يخصنى.

وهناك كنت أقضى سحابة يومى، جالسًا على القمة نفسها، أتطلع إلى البحر، وأنا أتـمنى، وأحيانًا أدعو الله أيضًا، أن تظهر فى الأفق سفينة. كنت أُغمض عينىَّ تـمامًا وأدعو الله أطول مدة مـمكنة ثم أفتحهما من جديد، وكنت أحس فى كل مـرة، بل أعتقـد حـقًّا، أن الله ســوف يستـجيـب لدعواتى، وأننى حين أفتح عينىَّ هذه الـمرة ســوف أجد پيجى سو وهى تبحر عائدة لإنقاذى، ولكن الـمحيط الشاسع العظيـم كان دائمًا خاويًا، وخط الأفق مستـمرًا دون انقطاع. كنت

دائمًا أحس بخيبة الأمل، بطبيعة الحال، وكثيرًا ما يصيبني الاكتئاب، لكنني لم أكن أصل إلى الإحباط التام - في تلك الأسابيع الأولى.

كنت أواجه مشكلاتٍ أخرى أيضًا بسبب لَفْح الشمس الحارق. ولم أتعلَّمْ إلاَّ بعد وقت طويل أن أظل مرتَديًا جميع ملابسى دائمًا. كنت صنعتُ لنفسى قبعة لحماية وجهى ورقبتى من الشمس. كانت القبعة عريضة جدًّا وتشبه القبعات الصينية، صنعتُها من خوص النخيل، بعد تضفيره في بعضه البعض. وكنت سعيدًا إلى حد كبير بما صَنَعَتْهُ يداى.

واكتشفت أن لفح الشمس الحارق من المنغصات التى أستطيع تفاديها، وأن ماء البحر قادر على تلطيف معاناتى. فعند الظهيرة كنت أهبط من التل قاصدًا الاحتماء فى كهفى من لَظَى الهجير وقَيْظ شمس العصر، وبعدها أذهب للسباحة. وكانت هذه هى اللحظة التى تتوق إليها ستلا كل يوم. كنت أقضى ساعاتٍ طويلةً أقذف لها فيها بالعصِىّ حتى تحضرها. كانت تستمتع بذلك، والحق أننى كَنَت أيضًا أستمتع به. كان ذلك يمثل ذروة نشاط اليوم. لم نكن نتوقف إلا عندما يهبط الظلام - وكان يهبط دائمًا بسرعة تدهشنى - ويَضْطَرُّنا إلى العودة من جديد إلى معركتى الليلية مع مصّاصات الدماء التى تعذبنى.

وذات يوم، بعد قضاء صباح عقيم آخر فى التطلع إلى البحر من فوق التل، كنت خارجًا مع ستلا من الغابة حين لمحتُ شيئًا فوق الرمل قريبًا من كهفنا. بدا لى على البعد قطعةً من ركام الخشب الطافى. ووَصَلَتْ ستلا إليه قبلى وجَعَلَتْ تتشممه فى حماس. وعندما اقتربْتُ أدركْتُ أنه ليس خشبًا على الإطلاق، بل حصيرة من القش مطوية. ونَشَرْتُها فوجدتُ داخلها مُلاَءَةً مطوية بعناية، ملاءة بيضاء. إذن كان يعرف! كان الرجل العجوز يعرف ألوان معاناتى ومنغصاتى، ويدرك كل ما أحتاج إليه. لابد أنه كان يراقبنى طول الوقت، وعن كَثَب أيضًا. لابد أنه رآنى وأنا أحكُّ بشرتى. وشاهد العلاماتِ الحمراء فى رجلىَّ وعلى ذراعىَّ، وأبصرنى وأنا أجلس فى البحر كلِ صباح لتخفيف آلام اللدغات. أفلا يعنى هذا أنه صفح الآن عن إشعالى النار؟

حملتُ الحصيرة إلى داخل الكهف، ونشرْتُها، ولففتُ جسمى بالملاءة، وظللت فى مكانى لا أفعل سوى أن أقهقه فرحًا. كنت أستطيع أن أغطى وجهى بالملاءة أيضًا، وإذن فلن تستطيع تلك البعوضات الملعونة أن تجد سبيلاً إلى لدغى الليلة. لسوف تبيت جائعة هذه الليلة.

وذهبتُ جريًا على الشاطئ حتى وَصَلْتُ إلى خَطِّ الحدود الذى رَسَمَهُ فوقفت، وجعلتُ من يَدَىَّ بوقًا أمام فمى وهتفت: "شكرًا لك! شكرًا على سريرى! شكرًا لك! شكرًا

لك!" لم أكن فى الواقع أتوقع ردًّا، ولم يأْتنى الرَّدُّ على أية حال. كنت آمل أن يأتى هو نفسه، لكنه لم يأت. وهكذا كتبتُ عبارات الشكر في الرمل إلى جانب خط الحدود ووَقَّعْتُه باسمى. لَكَمْ كنت أرجو أن أراه من جديد، وأن أتحدث إليه، وأن أسمع صوتًا بشريًّا. كانت ستلا أرتوا أروع رفيق لى، تُحْسِنُ كتمان السر، ورائعة لتبادل الأحضان، ورائعة فى اللعب معى، ولكننى كنت أفتقد بشدة صحبة البشر - والدتى، ووالدى، اللذين كانا غائبين عنى الآن، وربما إلى الأبد. كنت أتشوق لرؤية الرجل العجوز، وللحديث معه، حتى ولو كان مخبولاً بعض الشىء، وحتى مع أننى لم أكن أستطيع أن أفهم الكثير مما يقوله.

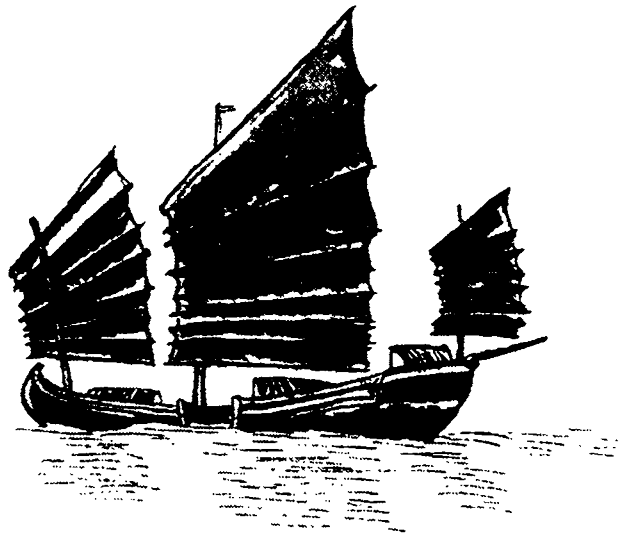
كنت قد اعتزمت تلك الليلة أن أظل مستيقظًا حتى يأتى، ولكننى كنت أحس بالراحة فى فراشى الجديد على الحصيرة، وأستمتع بالالتفاع بالملاءة التى تحمينى، فسرعان ما جاءنى النوم ولم أَصْحُ مرة واحدة طول الليل.

وفى صباح اليوم التالى، بعد إفطارى الذى كان يتكون من السمك وفاكهة البَحَّارة وجوز الهند، قمت أنا وستلا بصعود التل الخاص بى إلى قمته، وقد أصبحتُ أُطْلِقُ عليه اسم "تل المراقبة"، وأما التل الآخر فقد أسميته "التل الخاص به" وحسب. كنت أقوم بإصلاح قبعتى الصينية، وتغيير بعض الخوص فيها، إذ لم تكن، فيما يبدو، قادرة على التماسك

معًا فترة طويلة، ونَظَرْتُ إلى البحر فإذا بى أرى سفينة فى الأفق. لم أكن مخطئًا. كان ما أرى هو الصورة الـجانبية الطويلة لإحدى الناقلات العملاقة.







الفصل السادس

أبوناى!

انتصبْتُ واقفًا على الفور، وأنا أصيح بأعلى صوتٍ وأُلَوِّحُ بيدى فى جنون. وتواثبتُ فى مكانى، وأنا أصرخ مناشدًا من فيها أن يتوقفوا، أن يسمعونى، أن يرونى. "أنا هنا! هنا! أنا هنا!" ولم أتوقف إلا عندما بدأ حلقى يؤلمنى وعجزتُ عن الصياح. واستمرت الناقلة تسير ببطء وإغراءٍ يغيظ بحذاء الأفق. لم تستدر، وأدركت عندها أنها لن تستدير.

كنت أعرف أيضًا أنه لن يكون فيها من ينظر تـجاهنا، وحتى لو نظر أحدهم فإن هذه الـجزيرة كلها لن تبدو أكثر من أَكَمَة بعيدة غائمة على الأفق. كيف يـمكنهم إذن أن يرونى؟ لم يكن فى وُسْعِى سوى أن أستـمر فى النظر، عاجزًا ومذهولاً، والناقلة تـمضى لا تلوى على شىء فى طريقها، ويزداد ابتعادها عنى حتى بدأت تختفى فوق الأفق. واستغرق ذلك الصباح كله، فكان صباحًا من اللوعة الرهيبة.

وبينـما كنت واقفًا على قمة تل الـمراقبة أتطلع إلى البحر، أحسست بأن يأسى قد حل مَحَلَّه غضبٌ ملتهب. لو أنه سُمح لى بأن أُبقى على النار، لظلَّت الفرصة قائمة على الأقل فى أن يلمحوا الدُّخان. صحيح أنَ العجوز قد أحضر لى فراشًا من حصير، وملاءة أتغطى بها، وصحيح أنه يرعانى ويُبْقينى على قيد الـحياة، ولكنه أيضًا حكم علىَّ بالـحبس.

وعندما غاب آخر أثر للناقلة عن بصرى، قَطَعْتُ على نفسى عهدًا بألَّا أدع مثل هذه الفرصة تفلت من يدى مرة أخرى. وتـحسست جيبى فوجدت أننى ما زلت أحتفظ بقطعة الزجاج التى أُشعل بها النار. وصمـمت أن أُشعل النار. لسوف أستوقد نارًا أخرى، ولكن ليس على الشاطئ حيث يستطيع العثور عليها بل هنا فوق تل الـمراقبة، خلف الصخور، وبعيدًا تـمامًا عن

عينه، حتى إن كانت لديه نظارات مُقَرِّبة، وكان عليَّ أن أفترض الآَن أن لديه هذه النظارات. لسوف أجمع قدرًا من الأخشاب يكفى لإقامة منار عظيم، لكننى لن أوقد فيه النار، بل سأُتم تجهيزه وأنتظر اللحظة التى ألمح فيها إحدى السفن. كنت أقول فى نفسى ما دامت هذه السفينة قد أتت فسوف تأتى سفينة أخرى، بل لابد أن تأتى، وعندما تأتى، سأكون مستعدًّا بزجاجة إشعال النار، وبمخزون من أوراق الأشجار النحيلة مثل ورق الكتابة، والجافة جفافًا مطلقًا. ولسوف أشعل نارًا عظيمة تتصاعد منها ألسنة لهيب جبارة، وترتفع منها إشارة شاهقة من الدخان، بحيث يتحتم على السفينة التالية التى يتصادف مرورها أن تلاحظها.

وهكذا لم أعد أقضى أيامى جالسًا وحسب فوق تل المراقبة أنتظر، بل كنت أقضى كل ساعة هناك فى بناء المنار. كنت أَجُرُّ فروعًا ضخمة فوق الركام الصخرى من الغابة أسفله وأضعها فى كومة عالية، ولكن فى جانب التل المواجه للبحر، وهو المكان المثالى الذى يتيح للسفن مشاهدته عند إشعال النار فيه، وفى الوقت نفسه لا يتيح لعين العجوز الفاحصة أن تلمحه، وكنت أعتبره الآَن السجَّان الذى يحبسنى. ولا شك أنه سوف يراقبنى، وكنت واثقًا من ذلك كل الثقة. ولذلك حَرَصْتُ على

ألاّ يلمحنى إطلاقًا أثناء قيامى بإحضار الـحطب وحمله. كان من الـمحـال على أحد أن يعرف ما أفعلُ إلاَّ إذا نظر من ناحية البحر، ولم تكن فى البحر أية عيون ترقبنى.

وقضيْتُ عدة أيام فى العمل الشاق ببناء منارى السرى. وكنت قد قاربت الانتهاء منه عندما اكتشف أحدهم فعلاً ما أنا بصدده، لكنه لم يكن العجوز.

كنت أحمل فرعًا هائلاً وأضعه فوق الكومة حين أحسست فجأة بظلٍّ يغشانى. كانت سعلاة تقف فوق الصخرة العلوية وتنظر إلـىَّ من عَلٍ، لكننى لم أكن واثقًا أنها كانت نفس القرد الذى شاهدته من قبل. كان واقفًا على أطرافه الأربعة، وقد تـحدَّبت كتفاه العظيـمتان، وخفض رأسه، وجعل ينظر إلـىَّ نظرة جانبية. لم أجرؤ على الـحركة. كانت مواجهة صامتة، كتلك التى حدثت من قبل على الشاطئ.

واعتدل فى جلسته وظل ينظر إلـىَّ باهتـمام فاتر برهة من الوقت، ثم حَوَّلَ بصره عنى، وحكَّ وجهه فى غير مبالاة، ثم انحــدر هابطًا التل، وإن توقَّف مرَّةً واحدة ليلقى علىَّ نظرة من فوق كتفه قبل أن يواصل سيره فى ظل الأشجار ويبتعد. وخطر لى وأنا أرقبه أنه ربـما كان مُرْسَلاً للتـجسس علىَّ، وربـما عاد ليخبر الرجل العجوز بـما شاهدنى أفعله. أعرف أنها كانت فكرة سخيفة مضحكة، لكننى أذكر أنها خطرت ببالى.

وهبت عاصفة على الجزيرة تلك الليلة، عاصفة رهيبة عاتية، وكان هزيم الرعد الرهيب المصاحب للبرق عاليًا، إلى جانب صخب الأمطار وزفيف الرياح، حتى استحال عليَّ تمامًا أن أنام. كانت الأمواج العالية تهدر فى البحر، وتلطم الشاطئ وتهز الأرض من تحتى. وفَرَشْتُ حصير نومى فى آخر مكان بالكهف، وكانت ستلا ترقد بجانبى، بل فى أحضانى، وكم أحببت ذلك!

ولم تسكن العاصفة إلا بعد أربعة أيام كاملة، ولكن - حتى فى ذروة طُغْيانها - كنت لاأزال أجد سلة السمك والفواكه فى انتظارى كل صباح تحت صفيحتى، وهى التى كان العجوز يحشرها الآن حشرًا تحت الرف الصخرى. والتزمت أنا وستلا بمأوانا ومخبئنا فى الكهف، ولم نكن نرى سوى سياط المطر المنهمر خارجه. وكنت أتطلع فى رهبة إلى قوة الأمواج الجَبارة المنحدرة من المحيط العريض، فكانت تتكور وتهوى وتتفجَّرُ وهى تتكسَّرُ على الشاطئ، كأنما كانت تحاول تقطيع الجزيرة بالضرب المتوالى ثم ابتلاعنا جميعًا فى جوف اليَمِّ. وكثيرًا ما كنت أفكر فى أمى وأبى والسفينة پيجى سو، وأتساءل فى نفسى تُرى أين الجميع الآن؟ وكل ما كنت أرجوه هو أن يكونوا قد نَجَوْا من هذا الإعصار المدارى الذى شَهِدْتُه، ويُسمى إعصار "التايفون".

ثم حـدث ذات صباح أن تَوَقَّفَت العاصفـةُ فجـأة مثلما هبت فجأة. وسَطَعَت الشمس فى السماء الزرقاء، واستأنفت الغابة سيـمفونية أَصـواتهـا بعد انقطاعهـا، فخرجـتُ من الكهــف، وانطلقتُ فتسلقـتُ تــلَّ الـمراقبـة فـورًا لأنظر إن كانت هناك سفينة، ربـما تكون قد خرجت عن مسارهـا، وربـما كانت قد أوت إلى الـجزيــرة كــى تـحتـمى بهــا من العاصفـــة. لكننى لم أشــاهــد شيئًا. وخــاب أملى، لكننى - على الأقــل - رأيت منـارى لايزال منتصبًا. كان البَلَلُ يغمره بطبيعة الـحال، لكنه كان سليـمًا. كان البلل يغشى كل شىء. وكان من الـمحال إشعالُ النار الآن، حتى يجفَّ كل شىء.

كان الـجو حارًّا وخانقًا طول النهار. ولم يكن من اليسير أن أتـحرك على الإطلاق، بل كان التنفس عسـيرًا. لم يكن فى وُسْع ستـلا إلا أن ترقـد وتلهـث. وكان مكان الابتــراد الوحيد هو البحر، فقضيتُ معظم ذلك النهار فى الاسترخاء فى الـماء، متكاسلاً، وإن كنت أحيانًا أرمى بعصىً حتى تـحضرها ستلا وتشعر بالسعادة.

كنت شبه راقد فى الـماء، لا أفعل سوى أن أطفـــو مع أحــلام اليقظـة، حين سمعـت صـوت الرجل العجوز. كان يجرى على الشاطئ مهرولاً نـحوى، وهو يصيح بنا ويُلَوِّحُ بعصاه بشدة فى الهواء. وقال الرجل:

"*ياميرو! أبوناى!* خطر. تفهم؟ لا سباحة." لم يكن يبدو أنه غاضب منى، مثلما كان من قبل، وإن بدا من الواضح أن شيئًا ما أزعجه.

ونظرْتُ حولى. كان صدرُ البحر لايزال يصعد ويهبط، وإن كان ذلك بلُطْفٍ ورقَّةٍ، كأنما كان يزفر آخر زفرات العاصفة، وكانت الأمواج تتهادى بفتور وتسكن منهكةً على الشاطئ. لم أكن أستطيع أن أرى أى خطر خاص.

وأجبته: "ولم لا؟ ماذا هناك؟"

وكان قد ألقى عصاه على الشاطئ وجعل يخوض فى الماء تجاهى من خلال الأمواج.

"لا سباحة. *داميدا! أبوناى!* لا سباحة". وإذا به يمسكنى من ذراعى ويقودنى قسرًا إلى خارج ماء البحر. كانت قبضتُه مثل الكماشة. لم تكن هناك فائدةٌ فى المقاومة. ولم يطلق سراحى إلا عندما عُدْنا إلى الشاطئ. ووقف يلهث عدة لحظات. "خطر. بالغ السوء. *أبوناى!*" وكان يشير إلى البحر وهو يتكلم. "لا سباحة. بالغ السوء. لا سباحة. هل تفهم؟" وكان يحدق فى عينىَّ تحديقًا صارمًا، حتى لا يَدَعَ لدىَّ شكًا فى أن ما يقولُه ليس مجرد نصيحة بل هو أمرٌ لا بد لى من طاعته. ثم استدار وابتعد داخلاً الغابة، بعد أن التقط عصاه مرة ثانية. وجَرَت ستلا خلفه، لكننى دعوتها للعودة.

وشعرتُ فى تلك اللحظة أننى أريد أن أتحداه وأَعْصِيَهُ صراحة. لسوف أنزل البحر من جديد ولسوف ألهو وألعب بأقصى ما أستطيعه من صخب واستفزاز. لسوف أُلَقِّنُه درسًا. كان بى غضبٌ شديدٌ من هذا الظلم الفادح. فلقد منعنى أولاً من إشعال النار، ثم نفانى بعدها وحدد إقامتى فى أحد طَرَفَى الجزيرة، وهو الآن لا يسمح لى حتى بالسباحة. كنت أريد أن أشتمه بكل الشتائم التى أعرفها، لكننى لم أفعل. ولم أعد إلى السباحة في البحر أيضًا. واستسلمت. سَلَّمْتُ له بما أراد، لأننى مرغم. فأنا فى حاجة إلى طعامه وشرابه. وكان علىَّ أن أنفِّذ ما يقوله حتى يجفَّ تمامًا منارى الخشبى، وحتى تأتى السفينة التالية. ومع ذلك، فقد صنعتُ من الرمل تمثالاً بالحجم الطبيعى له على الأرض خارج كهفى، وجعلت أتواثب فوقه غضبًا وإحباطًا، فأحسست ببعض الراحة، وإن لم تكن راحة كبيرة.

وباستثناء ما كان ينتابنى عَرَضًا من آلام الحنين للوطن والإحساس بالوحشة، وهى الآلام التى كانت تعصر حشاى عصرًا، كنت قد نجحت بصفة عامة فى الحفاظ على روحى المعنوية العالية. ولكن صبرى نفد. إذ ظل منارى مبتلا لا يريد أن يجف. وكنت كل يوم أصعد تل المراقبة آملاً أن ألمح سفينة، والبحر يمتد أمامى كل يوم وفى جميع الاتجاهات خاليًا خاويًا. وازداد باطِّراد إحساسى بالعزلة

وبالشقاء. وقررت آخر الأمر ألا أصعد تل المراقبة أبدًا، فلا غَنَاء فى ذلك. وبدلاً من ذلك كنت أمكث فى كهفى، وأتكور فوق حصير فراشى ساعات طويلة أثناء النهار. كنت أرقد هنا غارقًا في أحزانى، وقد سيطر على فكرى خاطر أوحد هو اليأس الذى أواجهه، وكيف أننى لن أنجح يومًا ما فى الخروج من هذه الجزيرة، وأننى سوف أموت هنا، وأن أمى وأبى لن يعرفا أبدًا حتى ما حدث لى. لن يعرف أحد ذلك إلا العجوز، المجنون، سَجَّانى الذى يضطهدنى.

وظل الجو ثقيل الوطأة مشبعًا بالرطوبة. كم كنت أود أن أغطس فى المحيط، لكننى لم أجرؤ. فالمؤكد أنه لن يغفل عن مراقبتى. وكل يوم يمر كان يزيد من كراهيتى لذلك الرجل، على الرغم من مواصلته إحضار السمك والفواكه والماء إلىَّ. ربما كنت أحس بالضيق والاكتئاب، لكننى كنت أشعر أيضًا بالغضب. وبدأ هذا الغضب تدريجيًا يولِّد فى نفسى تصميمًا جديدًا على الهرب، ورفع هذا التصميم روحى المعنوية. فاستأنفت صعود تل المراقبة كل يوم، وبدأت أجمع مخزونًا جديدًا من أوراق الشجر والأغصان الجافة من حافة الغابة، خَبَّأْتُها جميعًا فى شَقٍّ عميق من شقوق الصخر حتى أضمن دائمًا أنها جافة، عندما تحين اللحظة المناسبة. وكان منارى قد جف آخر الأمر، فأَضَفْتُ إليه الكثير حتى ارتفع وزاد ارتفاعه. وعندما فعلت كل ما فى

طوقى جلست فى انتظار اللحظة المنشودة، وكنت واثقًا أنها سوف تأتى. يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، كنت أجلس فوق تل المراقبة وقد وَضَعْتُ زجاجة إشعال النار، بعد صقلها، فى جيبى، ومنارى جاهز ينتظر.

وقد تصادف أنه حينما حانت اللحظة المنتظرة لم أكن فوق تل المراقبة! إذ حدث أننى خرجت ذات صباح من كهفى، والنعاس لايزال برأسى فشاهدتها. سفينة! كانت سفينة ذات أشرعة غريبة لونها بنى ضارب إلى الحمرة، وقلت فى نفسى إنها سفينة من نوع "اليَنْك" الصينى ذى القاع المسطح، ولم تكن على مسافة بعيدة داخل البحر. وغلبنى الانفعال فانطلقت فى عجل واضطراب أجرى على الشاطئ، صائحًا صارخًا هاتفًا بكل ما أوتيت من قوة. ولكننى أدركت فورًا أن الأمر ميئوس منه، فرغم أن السفينة لم تكن بعيدة بُعْدًا كبيرًا فى البحر، فإنها كانت أبعد من أن يرانى من فيها أو يَسْمَعَنى أحدهم. وحاولت تهدئة نفسى، وحاولت التفكير... النار! أُشْعِلُ النار!

وغدوتُ أجرى طول الطريق صاعدًا التل دون أن أتوقف مرة واحدة، وستلا فى أعقابى كظلِّى وهى تنبح. وكانت الغابة من حولى تضج بأصوات النقيق والوقوقة والصراخ الحاد احتجاجًا على ذلك الإزعاج المفاجئ. وجهزت مخزونى من أوراق الشجر الجافة وأمسكت بزجاجة إشعال النار

ثم قبعت بجوار المنار لإشعال نارى. لكننى كنت أرتجف من فرط الانفعال والإرهاق فلم أستطع الحفاظ على ثبات يدى إلى الحد اللازم. وهكذا بنيتُ هيكلاً من الغصون ووضعتُ الزجاجة فوقه، مثلما سبق لى أن فعلت. وعندها جلسْتُ إلى جواره، راجيًا أن تضطرم النار فى ورق الشجر.

وكلما نظرْتُ إلى البحر وجدت تلك السفينة، أو اليَنْك. كانت تبتعد ببطء عنا، ولكنها كانت لاتزال هناك.

كنت أشعر كأنما مر علىَّ دهر فى جلستى قبل أن ألمح خيطًا رفيعًا من الدخان، وبعد ذلك بقليل وهجًا رائعًا لألسنة النار الجميلة الرائعة، وهى تنتشر فى طرف ورقة من أوراق الأشجار. وانحنيت فوقها حتى أنفخ فيها كى تضطرم.

وفى تلك اللحظة أبصرت قدميه، فرفعت بصرى. كان العجوز واقفًا قبالتى، وقد امتلأت عيناه غضبًا واستياءً. لم يتفوه بحرف واحد، بل انطلق يخمد نارى الوليدة. واختطف من يدى زجاجة إشعال النار ورمى بها بعيدًا على الصخرة أسفل التل فَتَفَتَّتَتْ وتناثَرَتْ شظاياها. لم أكن أملك إلا أن أنظر ما يحدث وأبكىِ، وهو يحطم منارى ويُلْقى بالغصون والفروع واحدًا بعد الاخر إلى أسفل التل. وفى أثناء ذلك تجمع حشد من قرود السعالى لمشاهدة ما يحدث.

وسرعان ما اختفى منارى عن آخره ولم يبق منه شىء. لم يعد حولى فوق الركام الصخرى سوى أطلال المنار

الـمتناثرة. وانتظرت منه أن يصرخ في وجهي، لكنه لم يفعل، بل تكلم بهدوء شديد وهو يضغط عامدًا على الـحروف، قائلا: "*داميدا*".

وصحت قائلاً: "ولكن لماذا؟ فأنا أريد العودة للوطن. وهناك سفينة في البحر، ألا تستطيع أن تراها؟ كل ما أريده هو العودة إلى الوطن وحَسْب. لماذا لا تدعني أرجع؟ لماذا؟" ووقف وهو يحدق فيَّ. وخُيِّل إلـيَّ في لـحظة أنني لـمحت بريق الفهم في عينيه. وعندها انحنى انحناءة حـادة من وسطـه، وقـال: "*جومينـاسـاي*. جومي*نـاسـاي*. آسـف. آسـف جدًا". وبعدها تركني في مكاني وانطلــق عائدًا إلى الغابـة، ومن خلفه السعالي.

وظللت جالسًا أرقب سفينة اليَنْك وهي تبتعد حتى لم تعد سوى نقطة على حافة الأفق، بل لـم أعد أحتـمل النظر إليها. وعندما حانت هذه اللـحظة كان رأيي قد استقر على أفضل صورة لعصيانه. كان الغضب قد بلغ مني مبلغًا لـم أعد معه أكترث بالعواقب. لـم أعد آبه. فقمت وستلا بجانبي وانطلقــت أمـشـي على الشـاطئ حتـى وصـلت إلى الـحد الفاصل الذي رسمه على الرمل بيننا فوقفت، ثم تـجاوزْتُه بصورة عامدة، كما تعمدْتُ وأنا أتـجاوزه أن أجعله يعرف تـمامًا ما كنت أفعله.

وهتفتُ بصوتٍ عالٍ: "هل تراني أيها العجوز؟ انظر! لقد تـجاوزت الـحدود فدَخلت منطقتك. لقد عَبَرْتُ الـحد الفاصل السخيف. والآن سوف أستحم. لا يهمني ما تقول.

لا يهمنى أن تـمتنع عن إطعامى. هل تسمعنى أيها العجوز؟"
وعندهـا اسـتدرْتُ وانطلقْــتُ على الشــاطئ فنـزلْتُ البحـر. وجَعَلْتُ أسـبحُ بقـوة ونشـاط حتـى أصابنى الإنهـاك الشديد وابتعدْتُ كثيرًا عن الشاطئ. وظللتُ أضرب الـماء بأقدامى طافيًا وأَضْرِبُ بيدى سطح الـماء فى غضبى حتى بدأ يُرغى ويُزبـد مـن حـولى. وصـحـت أقـول: "البحر ينتـمى لى مثلما ينتـمى لك. وسوف أسـبح فيه وقتـما أشاء".

وشاهدتـــه عنـد ذلك. ظهر فجأة على حافة الغابة. كان يصيح ببعض الألفاظ الـموجهة لى، ويُلَوِّحُ بعصاه فى الهواء. وكانت هذه هى اللـحظة التى أحسست فيها بالألم، كان ألـمًا لاذعًا كاويًا فى قفاى، ثم فى ظهرى وذراعىَّ أيضًا. وشاهدت أحد قناديل البحر يطفو بجوارى: كان أبيض شفافًا، وله أذرعٌ تتحسسنى. حاولت السباحة من جديد لكن قنديل البحر جاء خلفى لاصطيادى. كان الألـم مباشرًا فوريًّا مُبَرِّحًا. وتغلغل الألـم فى سائر جسمى مثل صدمة كهربائية واحدة متصلة. وأحسست أن عضلاتى قد تصلبت. وجعلت أرفس الـماء محاولاً العودة إلى الشاطئ لكننى لم أستطع. وأحسست أن رجلىَّ مشلولتان، وذراعىَّ أيضًا. كنت أغرق. ولـم يكن فى طوقى أن أمنع نفسى من الغرق. وشاهدت قنديل البحر يقف مستعدًا لتوجيه ضربته القاضية أمامى الآن. وصَرَخْتُ، فامتلأ فمى بالـماء. كنت أختنق. كنت على شفا الـموت. كنت على

وشك الغرق لكننى لم أكْتَرِثْ. كل ما أردتُه هو أن يتوقـفَ
الألـم. وكنـت أعـرف أن الـمـوت سـوف يقضى على الألم.





الفصل السابع

كل ما قاله الصمت

شَمَمْتُ رائحة الخل، وظننت أننى فى منزلى. كان والدى دائمًا يعود إلينا يوم الجمعة بعشاء من السمك والبطاطس المقلية، وكان يحب أن يصب الخل على نصيبه من ذلك الطعام، حتى إن رائحة الخل كانت تشيع فى المنزل طول المساء. وفَتَحْتُ عينى. كان الظلام يدل على أننا فى

الـمسـاء، لكننى لم أكن في منزلي. كنت فى كهفٍ ما، لكنه لم يكن كهفى. واستطعت أن أَشُمَّ رائحة دُخَان أيضـًا. كنت راقـدًا على فـراشٍ من حصير وأتغطَّـى بـملاءة تكسونى حتى ذقنى. حاولت أن أجلس حتى أتطلع إلىَ ما حولى لكننى لم أستطع الـحركـة. حاولت أن أديـر راسى، ولكن رقبتى كانت متصلبة. لم أكن أستطيع تـحريك شىءٍ سوى عينىَّ. لكننى كنت لاأزال قادرًا على الإحساس. كانت بَشَرَتى بل كان كل جســمى يرتـجف من الألم الـمُبَـرِّح، كأنـما اكتوى جسدى كله بنار حارقة. حاولت أن أنادىَ، ولكننى لم أستطع سوى الهمس بصعوبة. وعندها تذكرتُ قنديل البحر. تذكرت تلك الـحادثة كلها.

كان العجــوز منحنيًا فوقى، ويده تـمسح جبينى برفق. وقال: "لقد شُفــيتَ الآن. اسمى كنسـوكى. لقد شُفيتَ الآن". وأردْتُ أن أسـأل عن ستـلا، فأجابتْنى بنفسها بأن دَسَّتْ أنفهـا البـارد فى أذنى.

لا أعرفُ كم يومًا قضيت هناك، أنام وأصحو على فترات، ولا أعرف إلا أننى كلما صَحَوْتُ وَجَدْتُ كنسوكى يجلس بجانبى دائمًا. نادرًا ما كان يتكلم، ولم أكن أنا أستطيع الكلام، ولكن الصمت بيننا كان يقول أكثر مـما تقوله أيةُ كلمات. وهكـذا، فإن هــذا الرجـل الذى كان عَـدُوًّا لى حتى الآن، هـذا الذى كان سجَّانى، قد أصبح مُنْقِذِى

ومُخَلِّصى. كان يرفَعُنى بيديه حتى يَصُبَّ عصيرَ الفواكه أو الحساء الساخن فى حلقى. كان يمسح جسدى بإسفنجة مُلئَتْ بالماء البارد، وعندما كنت أصرخ من فرط الألم، كان يَحْضُنُنى ويُغَنّى لى أغانىَ رقيقةً حتى أعودَ للنوم. كان الأمر غريبًا، فعندما كان يغنى لى، كان صوته يبدو رجعًا لأصداء الماضى - ربما كان صوت والدى، لا أدرى. وببطءٍ رحل عنى الألم. وظل يتولى تمريضى حتى عُدْتُ للحياة. وعندما استطعت من جديد تحريك أصابعى رأيته يبتسم لأول مرة.

وعندما استطعت أخيرًا أن أُدير رأسى، كنت أشاهِدُه وهو يدخل ويخرج، وهو يقوم بالعمل فى أرجاء الكهف. وكانت ستلا كثيرًا ما تأتى وترقد إلى جوارى، وعيناها تتابعان ما يفعله أيضًا.

وفى كل يوم كان إدراكى يزداد للمكان الذى أرقد فيه. كان مكانًا شاسعًا بالمقارنة بكهفى على شاطئ البحر. ولولا سقفه الصخرى المرتفع ما أدركت تقريبًا أنه كهف. ولم يكن فيه ما يدل إطلاقًا على أنه كهف بدائى. كان أشبه بمنزل أُزيلت الجدران بين غُرَفِه منه إلى الكهف، فكان به مطبخ، وغرفة جلوس، وغرفة مكتب، وغرفة نوم، وكأنما جُمِعَتْ جميعًا فى مكان واحد.

كان يقوم بطهو الطعام على موقد صغير يتصاعدُ منه الدُّخَان دائمًا في آخر الكهف، وكان الدُّخَان يتصاعد ويخرج من فتحة صغيرة في الصخر فوق رءوسنا، وقلتُ في نفسي إن ذلك قد يكون سببَ عدم وجود بعوضٍ يضايقني. وكان يبدو لي دائمًا وجودُ شيءٍ معلَق في حامل خشبي له ثلاث أرجل فوق الموقد، إما أنه قِدْرٌ سَوَّده السناج، وإما ما يبدو في شكله ورائحته مثل شرائح طويلة من السمك المُدَخَّن.

كنت أستطيع رؤية البريق المعتم لأواني الطهو المعدنية المصفوفة على رفٍّ خشبيٍّ قريب. وكانت هناك أَرْفُفٌ أخرى اصْطَفَّتْ عليها العُلَبُ الصفيح والقدور الفَخَّارية، من عشرات الأشكال والأحجام المختلفة، وتتدلَّى تحتها حُزَمٌ لا تُحْصَى من الأعشاب والأزهار المجففة. وكثيرًا ما كان يقوم بخلط هذه أو طحنها، لكنني لم أكن واثقًا من غرضه. وأحيانًا كان يقوم بإحضارها لي حتى أشمها.

لم يكن في بيت الكهف أثاثٌ كثير. كانت في أحد جوانب الكهف منضدة خشبية غير عالية، لا تكاد ترتفع عن الأرض بما يزيد على ثلاثين سنتيمترًا أو نحو ذلك. وكان يضع عليها الفُرْشَات التي يستخدمها في الرسم، وكانت دائمًا مصفوفة بعناية، والمزيد من القدور الفخارية والزجاجات والأطباق الصغيرة.

وكان كنسوكى يقوم بعمله دائمًا تقريبًا بالقرب من مدخل الكهف حيث ضوء النهار. وكان فى الليل يَبْسُطُ الحصير الذى ينام عليه فى المكان المواجه لمرقدى فى الكهف، فى ظل الجدار. وأحيانًا ما كنت أصحو فى الصباح مبكرًا وأظل أرقبه وهو نائم. وكان دائمًا ما ينام على ظهره، وقد لف ملاءته حول جسمه، دون أن تصدر عنه أية حركة.

وكان من عادة كنسوكى أن يقضىَ ساعاتٍ طويلةً كل يوم منحنيًا فوق المنضدة مستغرقًا فى الرسم. كان يرسم ما يرسمه على أصداف بحرية ضخمة، لكنه لم يُطْلِعْنى يومًا ما على ما رَسَمَه، وهو ما كان يصيبنى بالإحباط. والواقع، أنه نادرًا ما كان يبدو راضيًا عن عمله، إذ كان عادة عندما ينتهى منه يمسح الرسم ويبدأ العمل من جديد.

وكان فى الجانب الأقصى من باب الكهف نَضَدٌ طويل مخصص للعمل، وتتدلى عاليًا فوقه صفوف منتظمة من الأدوات: مناشير ومطارق وأزاميل، وغيرها. وكانت خلف نضد العمل ثلاثة صناديق خشبية ضخمة، كان كثيرًا ما يبحث فيها عن قوقعة أو صدفة - ربما - أو ملاءة نظيفة. كنا نستعمل ملاءات نظيفة كل ليلة.

وكان يرتدى داخل الكهف رداء طويلاً يلف به جسده (عرفت فيما بعد أنه يُسمى "كيمونو"). وكان يحافظ

على النظافة المطلقة لبيت الكهف، فيقوم بكنسه مرة كل يوم على الأقل. وكان يضع إناءً كبيرًا مليئًا بالماء فى داخل باب الكهف، وكان كلما عاد يغسل قدميه ويجففهما قبل الولوج إلى داخل الكهف.

وكانت أرضية الكهف مغطاة تمامًا بِحُصُرٍ منسوجة من الأَسَلِ المُصَفَّر، مثل الحُصُرِ التى ننام عليها. وكانت جدران الكهف كلها مبطنة بالخيزران، من الأرض وحتى مسافة تعادل أو تزيد على طول القامة. كان المنزل بسيطًا، لكنه كان منزلاً. كان لكل شىء مكانه وغرض يؤديه.

وعندما تحسنت صحتى، كان كنسوكى يخرج ويتركنى وحدى، والحمد لله أن ذلك لم يكن لفترات طويلة. وكان عندما يعود، وهو يغنى فى أحيان كثيرة، كان يحمل السمك، وقد يحمل الفواكه أيضًا أو جوز الهند أو الأعشاب، وكان يعرضها علىَّ مزهوًّا. وكانت قِرَدَةُ السعالى تعود أحيانًا معه، لكنها كانت تتوقف عند مدخل الكهف. وكانت تحدق فى وجهى، وفى ستلا التى كانت دائمًا ما تحافظ على ابتعادها عنها. ولم يكن يحاول الدخول إلا الصغار، ولم يكن على كنسوكى إلا أن يصفق فى وجهها وسرعان ما تبتعد مهرولة.

كم كنت أتـمنى فى تلك الأيام الأولى فى الكهف لو استطعنا التحادث: كان هناك ألف لغز ولغز، وألف شىء وشىء أريد أن أعرفه. ولكن الكـلام كان لايـزال يؤلـمنى، كما إننى كنت سـعيـدًا تـمامًا بالصمت الذى يسـود بيننا، وأحسست أنه يفضله كذلك بصورة ما. كان يبدو أنه شخص شديد التكتـم، وأنه راضٍ بأن يظل كذلك.

وذات يـوم، بعد أن قضـى كنسوكى عـدة سـاعات منحنيًا يرسم إحدى لوحاته، جاءنى وأرانى إياها. كانت صورة شجرة، شجرة مزهرة. وقالت بَسْمَتُهُ كُلَّ شىء. ثم قال: "لَك! شجرة يابانية. أنا من اليابان". وبعد ذلك أرانى كنسوكى جميع اللوحات التى رسمها، حتى تلك التى مسحها فيـما بعد. كانت جميعًا باللونين الأبيض والأسود، لقرود السعالى والـجيبون، والفراشات، والدلافين، والطيور، والفواكه. لم يكن يحتفظ بإحداها إلا فيـما ندر، فيقوم بتخزينها بعناية فى أحد الصناديق. ولاحظت أنه يحتفظ بعدة لوحات للأشجار، وكانت دائمًا أشجارًا مزهرة، أو "شجـرة يابانيـة"، كمـا كان يسميها، وكنت أدرك أنه يجد متعة خاصة فى عرضها علىّ. كان من الواضح أنه يريدنى أن أشارِكَهُ شيئًا عزيزًا جدًّا على قلبه. وأحسستُ أن فى ذلك تكريـمًا لى.

وكان يجلس بجوارى يرقبنى عندما يخبو ضوء النهار كل يوم، وقد سَقَطَتْ آخرُ أشعة شمس الغروب على وجهه. كنت أحس أن نظرات عينيه تـجلب لى الشفاء. وكنت فى الليل كثيرًا ما أفكر فى أبى وأمى. لَكَمْ تـمنيتُ أن أراهما من جديد، وأن أخبرهما أننى ما زلت حـيـًّا. ولكن الغريب أننى لـم أعد أفتقدهما.

وبـمرور الوقت عادت قدرتى على الكلام، إذ فقد الشلل سيطرته علىَّ وعادت لى قوتى، فأصبحت أستطيع الـخروج مع كنسوكى، كلما دعانى إلى ذلك، وكثيرًا ما كان يدعونى. كنت فى البداية أجلس القرفصاء على الشاطئ مع ستلا وأشاهده وهو يصيد السمك فى الـمياه الضحلة. كان يقف ثابتًا ساكنًا ثم يضرب السمكة بسرعة البرق. ثم قام ذات يوم بصنع رُمْح لى، إذ أصبـح علىَّ أن أشاركه صيد السمك. أرشـدنى إلىَ مكان الأسماك الكبيرة، وأرانى أماكن اختفاء الأخطبوط تـحت الصخور، وعلمنى كيف أقف ساكنًا مثل طائر مالك الـحزين وأنتظر، وقد جهزت رُمْحى وصَوَّبْتُه فوق الـماء، وظلِّى يـمتدُّ خلفى حتى لا تخافَ الأسماكُ فتهرب. والـحق، أَن صيد سمكة بالرمح لأول مرة كان يشبه إحراز هدف لفريق "مدلاركس" لكرة القدم فى الوطن - أفضل إحساس تقريبًا يـمكن أن يحسه الإنسان.

كان كنسوكى، فيما يبدو، يعرف كل شجرة فى الغابة، ويعرف مكان كل شجرة من أشجار الفاكهة، ما كان ناضجًا من الثمار وما كان فجًّا، وما كان جديرًا بتسلق الشجرة من أجله. كان يستطيع أن يتسلق الأشجار التى قد يستحيل تسلقها بخفَّة وثبات قدم ودون خوف. لم يكن يزعجه شىء فى الغابة، لا قرود الجيبون التى تعوى وتتأرجح فوق رأسه لتَصْرِفَهُ عن ثمارها، ولا النحل الذى يحتشد حوله حين يعود هابطًا بِقُرْصِ الشهد من فجوة فى شجرة عالية (كان يستخدم عسل النحل فى تسكير الفواكه وحفظها فى زجاجات). وكانت أسرته من السعالى تصحبنا دائمًا، فتتبعنا كظِلِّنا فى الغابة، وقد تستطلع المسارب التى سنسير فيها أو تهرول خلفنا فى الطريق. لم يكن على كنسوكى إلا أن يغنى فتأتى. وكانت تبدو جميعًا مسحورة برنين صوته. كانت تشعر بالحيرة إزائى وإزاء ستلا، ولكنها كانت تقلق منا ونقلق منها، وهكذا حافظنا مؤقتًا على ابتعادنا عن بعضنا البعض.

وذات مساء، بينما كنت أرقب كنسوكى وهو يصيد السمك، فوجئت بأحد قرود السعالى الصغيرة يصعد ركبتى ويقبع فى حجرى ويبدأ فى فحص أنفى بإصبعه، ثم انتقل إلى فحص أذنى. وشدَّها بقوة لم أسترح لها؛ لكننى لم أصرخ. وبعد ذلك حَذَتِ الأخرى حَذْوه، كأنما كنت جهاز

تسلق تلعب فوقه. بل إن الكبار أنفسها، الأضخم جسمًا، كانت تـمد أيديها وتلمسنى من وقت لآخر، لكنها والـحمد لله كانت دائمًا متحفظة، أشد حذرًا من الصغار. وأما ستلا فكانت لاتزال تراعى الـمسافــة التى تفصلهـا عن القــرود، وتفصل القرود عنها.

وعلى مدى هذه الفترة الزمنية كلها - ولابد أننى كنت قضيت عدة شهور، على ما أظن، فى الـجزيرة - لم يكن كنسوكى قد قال إلا أقل القليل. كان يصعب عليه بوضوح أن ينطق بالألفاظ الإنـجليزيـة القليلـة التى يعرفهـا. وعندما كانت أية ألفاظ تُستخدم فى الـحديث بيننا لم تكن تساعد كثيرًا فى التفاهم. وهكذا لـجأنا فى معظم الأحيان إلى البسمات والإيـمـاءات، وإلى التلويحـات والإشـارات. بـل إننا كنا أحيانًا نرسم صورًا فى الرمل لشرح مقاصدنا. كان ذلك يكفى وحسب لاستـمرار التواصل. ولكننى أتـحرق شـوقًـا إلى معرفة الكثير. ما السبب الذى جعله يعيش هنا وحده فى هذه الـجزيرة؟ وكم مضى عليه هنا؟ وكيف تَأَتَّى له الـحصول على كل هذه القدور والأوانى والأدوات، وعلى السكين التى يحملها دائمًا فى حزامه؟ كيف أصبح أحد صناديقـه الـخشبيــة مكدسًـا بالـمـلاءات؟ من أين أتت؟ ما موطنـه؟ ولماذا يُبْـدى كل هـذا العطـف تـجاهــى الآن،

ويحافظ على مشاعرى بهذه الصورة، بعد أن كان يُظْهر استياءه الشديد منى بوضوح أول الأمر؟

لكننى كنت إذا طرحت عليه أيًّا من هذه الأسئلة هز رأسه وحسب وأشاح عنى كأنه رجل أصمٌّ يشعر بالعار من صممه. ولم أكن واثقًا في يوم من الأيام إن كان لا يفهمنى حقًّا أو لا يريد وحسب أن يفهم. ومهما يكن الأمر كنت أرى أنه يقلقه فأَقْلَعْتُ عن طرح المزيد من الأسئلة. كانت الأسئلة فيما يبدو تدخلاً فى حياته الخاصة. فَوَطَّنْتُ نفسى على الانتظار.

كانت حياتنا معًا عامرة بالنشاط دائمًا، ومنتظمة مثل عقارب الساعة. كنا نستيقظ فى الفجر وننطلق فى أحد المسارب فنسير قليلاً للاستحمام فى الجدول حيث ينحدر بمياهه الباردة العذبة من جانب التل فيصل إلى مِرْجَل عظيم من الصخور الملساء. وكنا نغسل ملاءاتنا وملابسنا فيه هنا أيضًا (وكان قد صنع لى الثوب الفضفاض، أى الكيمونو، الخاص بى من قبل)، فكنا نضرب الصخور بالملابس ونقرعها فيها قبل أن ننشرها لتجف على أحد فروع الأشجار القريبة. كان الإفطار يتكون من عصير الفواكه الغليظ السميك، وكانت الفاكهة تختلف من يوم ليوم، فيما يبدو، إلى جانب الموز أو جوز الهند. لم أشعر بالملل من

الـموز يومًا ما، لكننى سرعان ما سئمتُ جوز الهند. وكنا نقضى الصباح إما فى صيد السمك فى الـمياه الضحلة أو فى جمع الفوأكه من الغابة. وكنا أحيانًا نقوم، بعد هبوب إحـــدى العواصف، بتـمشيط الشاطئ بحثًا عن الأصداف التى كان يرسم عليها - ولم تكن تصلـح إلا أكبر الأصداف وأشدها تسطيحًا - أو بحثًا عن الرُّكام الطافى الذى يلقيه البحـــر حتى نُضِيفَهُ إلى مخزون الـخشب فى آخر الكهف. كان من الواضح أن الـمخزون ينقسم إلى قسمين، الأول يُستخدم بوضوح حطبًا، وأما الثانى فأظن أنه كان مُخَصَّصًا لأشغاله اليدوية. وكنا بعد ذلك نعـود إلى البيـت - فى الكهف - لتناول الغداء الذى كان يتكون من السمك النَّيِّئ (وهو دائمًا لذيذ) وفاكهة الـخبز عادة (وكانت دائمًا لطيفة الطعم يصعب بلعها). وبعد أن ينام كلانا فترة قصيرة بعد الغداء، يشرع هو فى الرسم على منضدته، وأنهمك أنا فى مشاهدته ومتابعة عمله حتى يستغرقنى تـمامًا فأتـمنى ألا تغرب شمس النهار. وقد نطبخ حساء السمك فوق الـموقد، دون أن نستبعد أى جزء من أجزاء السمكة، لا رأسها ولا ذيلها، ونضيف عشرة أعشاب مختلفة، فلم يكن كنسوكى يُفَرِّطُ فى شىء على الإطلاق، وبعد ذلك يأتى الـموز الأحمر، وكان لى أن آكل منه كل ما أريد. لم أكن

أحس مطلقًا بالـجوع. وعندما ينتهى العشاء كنا نـجلس عند باب الكهف ونشهد غروب الشمس فى البحر، وبعد ذلك، ودون أن يتفوه بكلمة واحدة، ينهض. ومن ثَمَّ ينحنى كل منا لصاحبه، فينشر هو حصير فراشه ويتركنى أنشر حصيرى.

كانت مشاهدة كنسوكى وهو يعمل مصدر عجب دائم لى، فلقد كان يتـمتع بالقدرة على التـمعن والتركيز الشديد فى كل شىء يفعله. ولكن مشاهدته وهو يرسم تأتى فى الـمرتبة الأولى. كان أولاً لا يسمح لى إلا بأن أنحنى بجواره لأراقبه. وكنت أشعر أنه حتى فى ذلك أيضًا كان يحب التكتـم و"الـخصوصية" بحيث لا يزعجـه أحـد. كان يضع على الـمنضدة أمامه ثلاثة أطباق صغيرة: أحدها لـحبر الأخطبوط (فلم يكن كنسوكى يعتبر الأخطبوط طعامًا فقط) والثانى فيه ماء، والثالث لـخلط الـحبـر بالـمـاء. وكان دائمًا يـمسك بريشته منتصبة بزاوية قائمة وهى دائمًا ثابتة فى يده، وأصابعه تقبض عليها من جانب وإبهامه عليها من الـجانب الآخر. وهو ينحنى مُنكبًّا على عمله، حتى تكاد شعرات لـحيته تلمس الصَّدَفَة التى يرسم عليها - وأظن أنه ربـما كان يعانى قليلاً من قِصَرِ النظر. وكنت أقضى ساعات طويلةً فى مشاهدته، دَهِشًا من دقة عمله ورهافته، ومن الثقة البادية فى إتقانه.

وذات يوم أثناء هطول الـمطر عصرًا - وكان الـمطر عندما ينهمر، ينهمر مدرارًا - وجدت أنه قد جهز لى صَّدَفَةً، وثلاثة أطباق وفرشاة رسم. كان يستـمتع كثيرًا بتعليـمى، وبكل محاولة عرجاء أقوم بها. وأذكر أننى فى أول عهدى بالرسم حـاولت أن أرسـم قنديـل البحـر الذى هاجمنـى، فإذا بـه يضحك ملء شدقيه، لا سخريةً منى بل اعترافًا وتذكرًا بـما جمع بين قلبينا. كنت دائمًا أحب الرسم، لكننى تعلمت من كنسوكى أن أعشقه، وتعلمت منه أن الرسم أو التلوين يحتاج منى أولاً إلى دقة الـملاحظة، ثم تكوين شكل الصورة فى ذهنى قبل أن أرسل بها عبر ذراعى إلى طرف الفرشاة، ومنها إلى الصَّدَفَةِ. وقد علمنى ذلك كله دون كلام. كان يُبَيِّـن لى ذلك وحسب.

كانت الأدلةُ على أنه فنانٌ بارعٌ عظيـمٌ باديةً حولى فى كل مكان، فلابد أنه هو الذى قام بتأثيث بيته فى هذا الكهف كله، ومعظمه من الركام الطافى: الصناديق، ونَضُد العمل نفسه، والرفوف، والـمنضدة. ولابد أنه هو الذى نسج الـحصير من الأسَـل، وما يغطـى الـجـدران من الـخيـزُران، وكـل شىء. وعندما فحصتُه بدقة وجدت أنه يتـميز بكمال التشطيب وجماله، فلا مساميرَ، ولا براغىَ، بل تضفيرٌ وتشبيكٌ دقيقٌ مُـحْكَم. كان يستخدم بعض أشكال الصمغ إذا اقتضى الأمر،

وكذلك الدوبــار أو خيــوط القَنَّب. وكانت الـحبال اللازمة للتسلق والرِّمَـاحُ الـمستخـدمةُ فى صيـد الأسماك، وشباكُ الصيد، وقَصَبُ صيد الأسماك كلها موضوعة فى أحد أركان الكهف (ولو أننى لم أشاهدْه يستخدم قصبة صيد السمك مرة واحدة). كان لا بد أنه هو الذى صَنَعَها كلها.

وكان قد صنع فُرْشات الرسم أيضًا، وسرعان ما عَرَفْتُ طريقة صُنْعِهَا. كانت لكنسوكى سعلاة يحبها، أنثى ضخمة كان يسميها "توموداكى"، وكانت كثيرًا ما تأتى وتـجلس إلى جواره كى يُـمَشِّطَ شعرها وينظفه. وكان منهمكًا فى ذلك ذات يوم خارج باب الكهف، وعلى مقربة منه، والسعالى الأخرى تشهد ما يفعل، حين رأيته يعمد إلى نزع أطول الشعرات وأشدها سوادًا من ظهرها. وأمسك الشعرات بيده فأرانى إياها، وهو يبتسم ابتسامة عريضة تعبيرًا عن نِيَّة مُبَيَّتَة. لم أفهم حقًّا حينذاك ما كان يعتزمه. ثم رأيته فيـما بعد عند نضد العمل يُشَذِّبُ الشعرات بسكينه، ثم يَغْمِسُها فى سائلٍ كنت شاهدته يستخرجه من إحدى الشجرات فى ذلكَ الصباح نفسه، ثم يقطع قطعةً صغيرة مُجَوَّفَةً من الـخيزُران ويـملؤها بشعـر "توموداكى". وبعد مـرور يـوم واحـد كان الصمـغ قد جـف وأصبـحت لديـه فرشـاة رسم. ويبدو أن كنسوكى قد وجد السبل الكفيلة بتلبية جميع احتياجاته.

كنا صامتيْـن مستغرقيْـن فى الرسم ذات يوم، والـمطر يهطل بغزارة وصخب على الغابة، عندما توقف، ووضع فرشاة الرسم، وقال ببطء شديد وبأسلوب محسوب بدقة، كأنـما كان يفكـر فى صياغتـه منذ وقـت طويـل: "أُعلمك الرسم يا ميكا" (وكانت هذه أول مرة يناديني فيها باسمى) "وتعلمنى أن أتكلـم الإنـجليزيـة. أريد أن أتـحـدث الإنـجليزيـة. علمنى أنت".

كانت تلك بداية درس فى اللغة الإنـجليزية قُدِّرَ له أن يستـمر شهورًا. كنت فى كل يوم، من الفجر إلى الغسق، "أُترجم" له الدنيا من حولـه إلى اللغـة الإنـجليزيـة. كنا ما زلنا نفعـل مـا كنا نفعلـه دائمًا؛ ولكننى كنت الآن أتكلم طـول الوقت وهـو يردد كـل كلمـة أقولهـا، وكل عبارة يريدها. وكانت الغضون تبدو على جبينه من فرط الـجهد الـمبذول.

كان كأنـما يكفيه ترديد الكلمة لابتلاعها فى ذهنه. وما إن ينطقْها ويستعملْها حتى تثبت فى عقله فلا ينساها أبدًا، وإذا تصادف أن نسى كلمة ما، كان دائمًا يُبْدى غضبه الشديد من نفسه. وكنت أحيانًا ألاحظه وأنا أتلفظ بكلمة جديدة فأجد عينيه تبرقان. كان يومئ ويبتسم كأنـما تعرَّف على الكلمـة، أو كأنـما يُحَيِّى صديقًا قديـمًا. كان يكررهـا

مـرات ومرات، كأنـما يتلذذ بـمذاق رنينها قبل أن يحفظها في ذاكــرته إلى الأبد. وكان كلما ازدادت معرفته بكلمات جديدة، ازدادت محاولته - بطبيعــة الـحال - لتـجربتهــا. وسرعان ما نـمت الكلمات الـمفردة فأصبحـت عبارات مبتـورة ثم غدت جُمَلاً كاملة. ومع ذلك، فإن أسلوب نطقه لم يتحسن قط، مهما يحاول تـحسينه. مايكل كان دائمًا ميكا - وأحيانًا ميكاسان. وغدونا الآن نستطيع على الأقل أن نتحادث معًا بسهولة أكبر، وانتهى عهد الصمت الطويل الذى تشكلت فيه صداقتنا. لم يكن الصمت فى يوم ما حاجزًا يفصل بيننا، لكنه كان يفرض علينا حدودًا.

كنا نـجلس بجوار باب الكهف عند غروب الشمس عندما قال: "انظر الآن إذا كنت أستطيع الفهم يا ميكاسان. قص عليَّ قصتك. أين تعيش. لماذا أتيتَ إلى جزيرتى هنا. منذ أن كنتَ طفلاً حتى الآن. وسوف أستـمع".

وقصصــتُ عليه قِصَّتــى. حكيــتُ له عن أمـى وأبـى، وعن إغلاق مصنع الطوب.عن كرة القدم مع إدى وفريق "مدلاركس" وعن السفينــة پيجى سو ورحلتنــا حول العالـم، وعن كرة القدم فى البرازيل، والأُسُود فى إفريقيا والعناكب فى أستراليا، وعن مرض والدتى، وعن الليلة التى سَقَطْتُ فيها من السفينة.

وقال عندما انتهيت: "ممتاز. أفهم. ممتاز. إذن تحب كرة القدم. عندما كنتُ صغيرًا كنتُ ألعب كرة القدم أيضًا. وقت سعيد جدًا، من زمن طويل، فى اليابان، فى وطنى". وجلس صامتًا برهة، ثم عاد يقول: "أنت بعيد جدًا عن وطنك يا ميكاسان. تبدو حزينًا جدًّا أحيانًا. أفهم. وإذن، أجعلك سعيدًا. نذهب غدًا لصيد السمك وربما أحكى لك قصتى أنا أيضًا. قصتى وقصتك. ربما تكون نفس القصة الآن". كانت الشمس قد غربت، فوقفنا وانحنينا نحيى بعضنا البعض. وقال: "*أوياسومى ماساى*".

وقلت له: "تصبح على خير". لم يكن تكلم باليابانية طول النهار إلا فى تلك اللحظة، ولكنه كان يغنى باليابانية – غالبًا. كنت علمته أغنية "عشر زجاجات خضراء"، وكانت تجعله يضحك كلما غناها. وكنت أحب ضحكته. لم تكن قهقهة مجلجلة قط، بل أقرب إلى الضحكة الخافتة المديدة. لكنها كانت دائمًا تثلج صدرى.

وفى صباح اليوم التالى حمل قَصَبَتَيْن من قَصَبَاتِ صَيْد السمك، وشبكة، وسار أمامى إلى داخل الغابة، ثم قال لى: "نَصِيدُ اليوم سمكًا كبيرًا يا ميكا، لا سمكًا صغيرًا". كان يسير بى إلى ذلك الجانب من الجزيرة الذى قَذَفَتْنى الأمواجُ عليه منذ شهور طويلة، وإن لم أكن أجد ما يدعونى

إلى زيارته من جديد، بسبب ندرة الفواكه فيه أو انعدامها. وكان علينا أن نسلك دربًا شاقًا خلال الغابة قبل أن نمضيَ في طريقٍ صخريٍّ يتلوّى منحدرًا إلى خليج رمليٍّ خفيٍّ. وما إن خرجْنا من الغابة إلى الشاطئ، حتى انطلقتْ ستلا تعدو وتتواثب فورًا في المياه الضحلة، وهي تنبح داعيةً إيّايَ إلى اللعب معها.

وفجأة قبض كنسوكي على ذراعي قائلاً: "انظر يا ميكاسان. ماذا ترى؟" كانت عيناه تنمان عن الإثارة والاستفزاز. ولم أعرف ما المفترضُ أن أنْشُدَهُ. فقال: "لا شيء هنا؟ صحيح؟ أنا رجل ماهر جدًّا. انظر وسوف أريك".

واتجه إلى آخر الشاطئ، وسرت خلفه. وعندما وصل بدأ يَشُدُّ ويسحبُ طبقة النباتات الصغيرة النامية بين الأشجار، ودهشت حين رأيته ينتزعها بسهولة. وشاهدت أولاً ما بدا كأنه كتلةٌ خشبيةٌ في وسط الرمل، لكنه عندما أزال المزيد من الفروع أدركْتُ أنه جانب من قارب، زورق بمسندين خشبيين، بل كان قاربًا مصنوعًا من جذع شجرة مُقَوَّر، وله هيكلٌ من المساند الخشبية على الجانبين. وكان مُغَطًّى بالخَيْش، ومن ثَمَّ بدأ يطوي الغطاء ببطء شديد ليكشف عن القارب، وهو يضحك ضحكته الخافتة.

وكانت في قاع القارب، بجوار مجداف طويل، كرةُ القدم المهداة لي، ومَدَّ يَدَهُ فالتقطها وألقاها إليَّ. كانت قد فقدت

شدة انتفاخها، كما كـان جانـب كبيـر من الـجلد الأبيض مُشَقَّقًا حائل اللون، لكننى كنت أستطيع أن أرى بصعوبة اسم إدى.





الفصل الثامن

كل من
فى نجاساكى مات

طِرْتُ فَرَحًا. لقد وجدتُ جزءًا منى كنت ظننت أننى فقدته إلى الأبد. وقال كنسوكى ناظرًا إلىّ بوجه مشرق بالبسمات: "أنت الآن سعيدٌ يا ميكاسان. وأنا أيضًا سعيد.

نذهب لصيد السمك. أقول لك بعد قليل أين وَجَدْتُ هذه الكرة. سرعان ما أحكى لك كل شىء. لم تعد الأسماك الصغيرة طيبة المذاق الآن. وليست كثيرة أيضًا. نحتاج إلى أسماك كبيرة أحيانًا من البحر العميق. نُدَخِّن السمك، وعندها يصبح عندنا دائمًا سمك كثير جاهز للأكل. تفهم؟".

كان الزورق ذو المسندين أثقل كثيرًا مما بدا لى. وساعدْتُ كنسوكى فى جره على الشاطئ وإنزاله إلى الماء. وقال ونحن نحمل ستلا إلى داخل القارب: "هذا قارب ممتاز. هذا القارب لا يغرق أبدًا. صَنَعْتُهُ بنفسى. قاربٌ مأمونٌ تمامًا". ودَفَعَ القارب فى الماء وركبنا. لن أتوقف يومًا عن الدهشة من قوته الفذة ورشاقة حركته الفائقة. كان يجدِّف بمجداف واحد. واقفًا فى مؤخرة القارب كأنه يقود قاربًا مسطحًا بمجداف واحد. وسرعان ما تجاوزنا الخليج الآمن وانطلقنا نركب أمواج البحر الشاسع.

كنت أجلس محتضنا كُرَتى، وستلا عند قدمىَّ، أتطلع إليه وأنتظر أن يبدأ قصته. كانت الحكمة تقضى بألاّ أضايقه بالحاحى الآن، كما كنت أعرف. فصيد السمك له أولوية. وهكذا وضع كلٌّ منا الطُّعْم فى الشص، وجلسنا فى صمتٍ نصيد، كل واحدٍ فى جانب من جانبَى القارب. كانت بى

رغبة شديدة فى سؤاله عن كرة القدم، وكيف عثر عليها، لكننى لم أجرؤ، خوفًا من أن يتقوقع على نفسه فلا يقول شيئًا. وبعد وقت طويل بدأ يتكلم، ولكنَّ ما قاله كان جديرًا بانتظارى.

قال: "سأحكى لك الآن كل شىء يا ميكاسان، حسبما وعدتك. أنا عجوز، لكنها ليست قصة طويلة. وُلدتُ فى اليابان. فى نجاساكى. مدينة ضخمة جدًّا، على البحر. ونشأتُ فى تلك المدينة. وعندما كبرت درست الطب فى طوكيو. وسرعان ما أصبحت طبيبًا. الدكتور كنسوكى أوجاوا. وكنت فخورًا جدًّا. فأنا أرعى أمهات كثيرات، وكثيرًا من الأطفال أيضًا. كنت أول شخص يراه أطفال كثيرون فى هذه الدنيا. ثم ذهبت إلى لندن. وقمت بالدراسة فى لندن، فى مستشفى "جاى". هل تعرف ذلك المكان؟" وهززت رأسى. "وبطبيعة الحال تعلمتُ قليلاً من الإنجليزية هناك. وبعدها عُدْتُ إلى نجاساكى. اقترنتُ بزوجة جميلة اسمها كيمى. ثم جاءنى ابن صغير أيضًا، ميشيا. كنتُ بالغ السعادة فى تلك الأيام. ولكنَّ الحربَ سرعان ما أتت. أصبح جميع الذكور اليابانيين جنودًا، وربما بحارة. ودخلت البحرية. أصبحت طبيبًا فى سفينة حربية كبيرة".

وجاءت سمكة فَشَدَّتْ خيط سنارته، لكنها أكلت الطُّعم وتفادت الشِّص. واستأنف حديثه وهو يضع طُعْمًا جديدًا في الشص، قائلاً: "مضى على هذه الحرب زمن طويل". كنت أعرف بعض المعلومات عن نشوب حرب مع اليابان - وكنت شاهدْتُها في الأفلام - لكنني لم أكن أحيط إلا بأقل القليل عن الحرب. وهَزَّ رأسه، قائلاً: "مات الكثيرون في تلك الحرب. كانت تلك الحرب زمنًا عصيبًا جدًّا. غَرِقَتْ سفن كثيرة. وانتصر الجيش الياباني في معارك كثيرة. وكان الشعب الياباني بالغ السعادة. مثل كرة القدم، عندما تفوز تشعر بالسعادة. وعندما تخسر تحزن. كنت أعود كثيرًا إلى البيت، فأرى زوجتي كيمي وابني الصغير ميشيا في نجاساكي. كبر بسرعة. أصبح غلامًا. وكنا أسرة سعيدة جدًّا.

"ولكن الحرب استمرت زمنًا طويلاً. جاء الكثير من الأمريكيين. سفن كثيرة، طائرات كثيرة، قنابل كثيرة. لم تعد الحرب الآن في صالح اليابان. وقت بالغ السوء. دخلنا معارك بحرية كثيرة. وجاءت الطائرات الأمريكية. وسقطت القنابل على سفينتي. اشتعلت النار وصعد الدُّخَان. دُخَانٌ أسود. واحترق رجال كثيرون. ومات رجال كثيرون. وقفز رجال

كثيرون من السفينة فى البحر. لكننى بقيت. فأنا طبيب. مكثتُ مع مرضاى. وجاءت الطائرات من جديد. وألقت المزيد من القنابل الكثيرة. كنت متأكدًا أننى لا شك سوف أموت. لكننى لم أمت. نظرت حولى فى السفينة. كل المرضى ماتوا. كل البحارة ماتوا. كنت الحىّ الوحيد على ظهر السفينة، ولكن المحرك لايزال يعمل. والسفينة تسير وحدها. كانت تسير الآن إلى أى مكان تريده. لا أستطيع أن أدير عجلة القيادة. لا أستطيع أن أفعل شيئًا. ولكننى أستمع إلى الراديو. يقول الأمريكيون فى الراديو، إن قنبلة كبيرة أُلقيت على نجاساكى، قنبلة ذرية. مات الكثيرون. حزنت حزنًا شديدًا. أعتقد أن كيمى ماتت، وميشيا مات. وأمى تعيش هناك أيضًا، وكل أسرتى. أعتقد أنهم جميعًا ماتوا.

"وسرعان ما قال الراديو إن اليابان استسلمت. واستَبَدَّ بى الحزن حتى أردتُ أن أموت". وظل يركز على صيد السمك برهة ثم استأنف قصته، قائلاً: "وسرعان ما توقف محرك السفينة. ولكن السفينة لم تغرق. وهبت ريح شديدة، عاصفة شديدة. وقلت فى نفسى إننى ميت الآن ولا شك. ولكن البحر حمل السفينة وأتى بى إلى هنا، إلى هذه الجزيرة. رَسَتِ السفينةُ على الشاطئ، لكننى لم أكن قد مُت.

"وسرعان ما وجدت الطعام. ووجدت الماء أيضًا. وعشت مثل الشحاذين فترة طويلة. كنت أشعر فى أعماقى أنى شخص سيِّئ، وأقول فى نفسى لقد مات كل أصدقائى، ومات أفراد أسرتى جميعًا، وأنا حىّ. لم أكن أريد أن أعيش. ولكن سرعان ما قابلْتُ السعالى. كانت تلك القِرَدَةُ تشفق علىّ. هذا مكان جميل جدًّا، مكان يسوده السلام. لا حرب هنا، لا أشرار. قلت لنفسى، يا كنسوكى أنت رجل محظوظ جدًّا لأنك حىّ. ربما تستطيع البقاء هنا.

"أخذتُ أشياء كثيرة من السفينة. أخذت الأغذية، وأخذت الملابس والملاءات. أخذت الأوانى وأخذت الزجاجات. وأخذت السكين. وأخذت الأدوية. وجدت أشياء كثيرة، وأدوات كثيرة أيضًا. أخذت كل شىء وجدته. وعندما انتهى كنسوكى، لم يكن قد بقى فى السفينة شىء يذكر، وأؤكد لك. ووجدت الكهف. وخَبَّأْتُ كل شىء فى الكهف. وسرعان ما هَبَّتْ عاصفةٌ رهيبة، وتحطمت السفينة على الصخور، وسرعان ما غاصت فى البحر.

"وجاء الجنود الأمريكيون ذات يوم. فاخْتَبَأْتُ. لم أكن أريد أن أستسلم، فهو ليس شيئًا مُشَرِّفًا. كنت خائفًا جدًّا أيضًا. واختبأت فى الغابة مع السعالى. وأشعل الأمريكيون

النار على الشاطئ. وكانوا يضحكون بالليل. كنت أسمعهم. كانوا يقولون إن كل من في نجاساكي ماتوا. وكانوا سعداء جدًّا بذلك. ويضحكون. وعندها تأكدتُ أنني سوف أبقى في هذه الجزيرة. لماذا أعود إلى الوطن؟ وسرعان ما رحل الأمريكيون. كانت سفينتي قد غرقت من قبل. فلم يستطيعوا العثور عليها. وسفينتي لاتزال هنا، تحت الرمال الآن، أصبحت الآن جزءًا من الجزيرة".

وتذكرتُ هيكل السفينة الذى علاه الصدأ وشاهدته في أول يوم لي في الجزيرة! لقد بَدَأَتْ أمور كثيرة تتضح لي الآن. وفجأة ابْتَلَعَتْ سمكةُ الطُّعْمَ من سِنَّارتي، فكادت تنتزع القصبة كلها من يدي. وانحنى كنسوكي ليساعدني. وقضينا عدة دقائق ونحن نرفع السمكة من الماء إلى السطح، ولكننا نجحنا معًا في حملها إلى القارب. وجلسنا ونحن نشعر بالإرهاق بعدها، والسمكة تتلوى متواثبةً في قاع القارب، عند أقدامنا. كانت هائلة الحجم، أكبر حتى من أكبر سمكة رأيتها في حياتي، وهي سمكة الكراكي التي صادها أبي في مياه الخزان، في الوطن. وأخمد كنسوكي

حركتها بسرعة، بضربة حادة خلف عنقها بـمقبض سِكّينه، قائلاً: "سمكـةٌ جيـدة. بل سمكـة مـمتـازة. أنت صيـاد سمـك ماهـر يا ميكا. نعمل جيدًا معًا. ربـما استطعنا صيد الـمزيد الآن".

ولكنَّ ساعاتٍ طويلةً مَضَتْ قبل أن نصيدَ سمكةً أخرى، وإن لم تكن تشبـه هذه. وحكى لى كنسـوكى عن حيـاته وحيدًا على الـجزيرة، كيف تعلم أساليب البقاء، وكيف يعيش من خير الأرض. وقال إنه تعلم معظـم ما تعلمـه من مراقبـة السعالى وما تأكله، وما لا تأكله. وتعلم تسلق الأشجار مثلها، وتعلم أن يفهم لغتها، وأن يراعى إشارات تـحذيرها، مثل البريق فى العينين وحَكّ الـجسم بقلق شديد. واستطاع ببطء أن يُنْشِئ رابطة ثقةٍ معها، وأن يُصْبِحَ واحدًا منها.

وبحلول موعد عودتنا إلى البيت فى ذلك الـمساء، ونحن نـحمل ثلاث سمكات كبيرة فى قاع القارب - وأظن أنها كانت من سمك التونة - كان قد انتهى من قصته. كان يتحدث وهو يضرب الـمجداف فى الـماء. "بعد الأمريكيين، لم يأت رجال آخرون إلى جزيرتى. عشتُ وحدى سنوات كثيرة. أنا لم أنس كيـمى. لم أنس ميشيا. ولكننى أحيا. وبعد ذلك ربـما بسنوات أتى الرجال. رجال بالغو السوء،

رجال قَتَلَة، معهم بنادق. وهم يصيدون الحيوان. ويطلقون الرصاص. كنتُ أُغَنِّى للسعالى صديقتى. فكانت تأتى إلىّ حين أغنى، وهى خائفة جدًّا. كانت تأتى وتختبئ جميعًا فى كهفى. ونختبئ معًا فلا يستطيع القتلة أن يعثروا علينا. ولكنهم يطلقون النار فى الغابة على قرود الجيبون، وهو الاسم الذى قُلْتَهُ لى. كانوا يطلقون النار على الأُمَّهات. ويأخذون الأطفال. ما الذى يدعوهم إلى ذلك؟ وكنت غاضبًا جدًّا. كنت أعتقد أن كل الناس قتلة. كنت أكره جميع الناس، فيما أظن. لم أكن أريد أن أرى الناس مرة أخرى.

"وحدث ذات يوم أن أَرَدْتُ صيدَ سمكةٍ كبيرةٍ لتدخينها، فذهبتُ للصيد فى هذا القارب. وهبت الريح فى الاتجاه المعاكس فابتعدتُ عن الشط. كان البحر يجذبنى بقوة شديدة. حاولت العودة إلى جزيرتى لكننى لم أستطع. فأنا عجوز، وذراعاى ليستا قويتين. وعندما أتى الليل كنت لاأزال بعيدًا. وشعرت بخوف شديد. فجعلت أغنى. فالغناء يمنحنى الشجاعة. وسمعت صرخة. وأبصرت ضوءًا. وظننت أننى أحلم. ثم سمعت أغنية أخرى فى البحر. فى الظلام. وأتيت مسرعًا قدر طاقتى، فَوَجَدْتُكَ ووجدتُ ستلا والكرة. كنتَ شبه ميت يا ميكاسان. وكانت ستلا كلبةً شِبْه

ميتـة". إذن كان كنسـوكى هو الذى انتشلنى من البحـر، كنسوكى هو الذى أنقذنى. لم يَجُلْ ذاك بخاطرى قط.

وعاد يقول: "وفى الصباح أعادنا البحر إلى جزيرتى. كنت سعيدًا جدًّا لأنك لم تـمت. لكننى كنت غاضبًا جدًّا أيضًا. فأنا أَرَدْتُ أن أكون وحدى. لم أكن أريد أن أرى الناس. إذ كان جميـع الناس فى نظرى قتلة. لم أكن أريدك فى جـزيـرتـى. حَمَلْتُكَ. تَرَكْتُـكَ على الشـاطئ. كنت أترك لك مــاءً حتى لا تـموت. لكنك أَشْعَلْتَ النار. وأنا لا أريـد أن يأتى النـاس. لا أريـد النـاس أن يأتوا فيجـدونى هنا على جزيرتى. وربـما يأتون. وربـما يطلقون النار فيقتلون السعالى، ويقتلون قرود الـجيبون. وربـما يجدوننى، ويأخذوننى معهم أيضًا. كنت غاضبًا جدًّا، فأطفأْتُ النار. ولم أكن أريد أن أتكلم معك. ولم أكن أريد أن أراك، فرسمتُ خطَّ الـحدود الفاصل فى الرمل.

"وهبت عاصفةٌ كبيرة، أكبر عاصفة رأيتها فى حياتى. وامتلأ البحر بعد العاصفة بقناديل البحر البيضاء. وأنا أعرف قناديل البحر هذه. بالغة السوء. إذا لـمستك تـموت فى الـحال. أعرف ذلك. أقول لك لا تسبح، فهو خطر جدًّا. وسـرعان ما أرى أنك أشعلـت نـارًا كبيـرة على قمة التل.

واعتقدتُ أنك شخص شرير جدًّا. كنت غاضبًا جدًّا هذه المرة، وكنت أنت غاضبًا جدًّا أيضًا. فسبحتَ فى البحر. ولدغتك قناديل البحر. وقلتُ من المؤكد أنك مت. ولكنك قوىٌّ جدًّا. فعشتَ. أتيتُ بك إلى الكهف. عندى خلٌّ. أصنعه من النبق. والخَلُّ يقتلُ السُّم. أنت حىٌّ يا ميكا، لكنك كنت مريضًا جدًّا زمنًا طويلاً. أصبحتَ الآن قويًّا، وأصبحنا الآن أصدقاء. بيننا صداقة متينة".

هذا إذن ما حدث - القصة كلها. وتوقف عن التجديف برهة وتبسم لى من جديد، قائلاً: "أنت مثل ابنى الآن. ونحن سعداء. فنحن نرسم. ونصيد السمك. ونحن سعيدان. نمكث معًا. لقد أَصْبَحْتَ الآن أسرتى، يا ميكاسان. صحيح؟".

وقلت له: "نعم! صحيح!" وكنت أعنى ما أقول وأشعر به.

وتركنى أقوم بالتجديف، وبيَّن لى كيف أُجَدِّفُ بأسلوبه، وأنا واقف وقدماى منفرجتان ثابتتان. لم يكن الأمر بالسهولة التى صَوَّرَها لى. كان من الواضح أنه يثق فى قدرتى على التجديف حتى يعود بنا القارب إلى الشاطئ، إذ اضطجع فى جلسته فى مقدم الزورق ذى المسندين، حتى يستريح واستغرق فى النوم حالما جلس تقريبًا، فاتحًا فاه، وخداه

غائران. كان دائمًا يبدو فى سُباته أكثر هَرَمًا مـما هو عليه. وأثناء تطلعى إليه حاولت أن أرسم فى خيالى صورة لوجهه فى الـماضى، ما لابد أنه كان عليه حين قدم أول مرة إلى هذه الـجزيرة، منذ هذه السنين الكثيرة البعيدة، منذ أربعين عامًا. كنت مَدينًا له بِدَيْن كبير، كبير جدًّا، فقد أنقذ حياتى مرتين وأطعمنى وصادقنى. كان على صواب. كنا سعيدَيْن، وكنت أنا "أسرته".

لكنه كانت لى أسرة أخرى. وتذكرت آخر مرة ركبت فيها سفينة، وفكرت فى أمى وأبى، وكيف أنهما لا شك يحزنان لفقدى كل يوم وكل ليلة. وبعد هذا الوقـت الطويل لابد أنهما يعتقدان أننى غرقت، قطعًا، وأن احتـمال وجودى على قيد الـحياة معدوم. لكننى لـم أغرق. بل أنا حىٌّ. لابد أن أجعلهما يعرفان ذلك بوسيلة ما. وبينـما كنت أكافح عصر ذلك اليوم للعودة بالزورق ذى الـمساند إلى الـجزيرة غمرنى إحساس مفاجئ قوىٌّ بالشـوق إلى رؤيتهما من جـديد، إلى صُحْبَتِهما. وخطـر لى أن أسـرق القـارب. من الـمـمكن أن أجـدف به حتى أبتعد، ومن الـمـمكن أن أشعـل النار مـرة أخـرى. لكننى كنت أعـرف حتى أثناء هذه الـخواطـر أننى لن أستطيـع تنفيذهـا. كيـف يـمكننى الآن أن أتخلى عن

كنسوكى بعد كل ما فعله من أجلى؟ كيف أخون ثقته؟ وحاولت إبعاد الفكرة بِرُمَّتِها عن ذهنى، وكنت أعتقد حقًا أننى نجحت فى استبعادها، لولا أننى - فى الصباح التالى مباشرة - رأيت زجاجةَ الكوكاكولا البلاستيك على الشاطئ بعد أن جَرَفَتْها الأمواج، فعادت فكرةُ الهروب من جديد، وتملكتنى من جديد ليلاً ونهارًا، ولم تكن تتركنى إطلاقًا.

وقمت بدفن زجاجة الكوكاكولا فى الرمل عدّة أيام كنت أثناءها أصارع ضميرى، أو بالأحرى أبرر لنفسى ما أريد أن أفعله. وقلت لنفسى إنها لن تكون خيانة حقيقية، أعنى ليست خيانة بالمعنى المفهوم، وحتى لو وَجَدَ أحدهم الزجاجة فلن يعرف أحد المكان الذى يأتى إليه، ولن يعرف إلا أننى على قيد الحياة. وعقدت العزم على تنفيذ خطتى، وأن يكون ذلك فى أقرب الآجال.

كان كنسوكى قد ذهب إلى البحر لصيد الأخطبوط، وكنت قد لزمت الكهف لأنتهى من الرسم على صَدَفَةٍ - أو ذلك ما قلت له. وجدت مُلاءَةً قديمةً فى قاع صندوق من صناديقه، فقطعت ركنًا صغيرًا من أركانها، ثم انحنيت

على الـمنضدة، وبسطتُها أمامى وكتبتُ رسالتى عليها بحبـر الأخطبوط، وهى:

إلى السفينة پيجى سو، فيرهام، إنجلترا.
عزيزىّ أمى وأبى،
أنا حىّ. فى صحة جيدة. وأعيش فى جزيرة
لا أعرف مكانها. تعاليا وخذانى.

مع حبى
مايكل

وانتظرتُ حتى تـجف تـمامًا، ثم طويتها، وأخرجت زجاجة الكوكاكولا من الرمل، وأدخلت رسالتى فيها ثم أغلقت فُوَّهَةَ الزجاجة إغلاقًا محكمًا. تأكدتُ تـمامًا أن كنسوكى كان لايزال منهمكًا فى الصيد، ثم انطلقت. وأخذت أجرى من أول الـجزيرة إلى آخرها ملتزمًا دائمًا بالغابة، حتى لا تُتَاحَ لكنسوكى فرصةُ رؤية الـمكان الذى أقصده أو ما عقدت العزم عليه. وكانت قرود الـجيبون تعوى باتهاماتها لـى طـول الطريق، والغابة توقوق وتصرخ بإدانتى. كل ما كنت أرجوه

ألَّا تَرُدَّ ستــلا على ذلك بنباحها فتكشف مكانى. لكنها لـحسن الـحظ لم تنبح.

ووصلت أخيرًا إلى الصخور أسفل تل الـمراقبة. وجعلت أقفـز من صخـرة لصخـرة حتى أصبحـتُ أقفُ فى أقصـى أطـراف الـجـزيـرة، والأمـواج تتكسر عند أقـدامى. ونظـرت حولى، فلم أجد شاهدًا علىَّ سـوى ستـلا. وقذفتُ بالزجاجة إلى أبعد مدى استطعتُه فى البحر، ثم وقفتُ أنظرها وهى تتواثبُ بعيدًا فوق صفـحـةِ مـاء البحـر وقلت فى نفسى لقد بَدَأَتِ الرحلة.

لم أستطع أن أذوق حسـاء السمـك الذى قدمـه لـى كنسوكى ذلك الـمساء، فظنَّ أننى مريض. لم أكن قادرًا تقريبًا أن أتحدث إليه. ولم أستطع أن أجعل عينىَّ تواجه عينيه. وظللت راقدًا طول الليل فى عذاب مُـمضٍّ، يؤرقنى الإحساس بالذنب، ومع ذلك - وفى نفس الوَقت - اَملاً، على استحالة الأمل، أن يلتقط أحدهم زجاجتى.

كنت مع كنسوكى نقوم بالرسم فى عصر اليوم التالى حين دخلت ستلا الكهف بخطًى خافتة. وكانت زجاجة الكوكاكولا فى فمها. وألقت بها أمامى وتطلعتْ إلـىَّ، وهى تلهث وتشعر بالسعادة والزهو بـما فَعَلَتْ.

وضحك كنسوكى وانحنى ومَدَّ يَدَهُ فالتقط الزجاجة، وأَعْتَقِدُ أنه كان يوشك أن يعطيها لـى عندما لاحظ وجودَ شىءٍ فيها. وأدركتُ من الطريقةِ التى حَدَجَنى بها بنظره، بل تأكدت أنه عرف على الفور ما كانت تـحتـويـه.





الفصل التاسع

ليلة السلاحف البحرية

هبط بيننا صمت طويل أليم. لم يُؤَنِّبْنى كنسوكى قط على ما فعلت. لم يكن غاضبًا منى أو متجهم الوجه معى. ولكننى كنت أعرف أننى جَرَحْتُ مشاعره جُرْحًا عميقًا. لم

نـمتنع عن التحادث معًا - بل كنا نتحادث - ولكننا لم نعد نتحادث بالروح التى كنا نتحادث بها من قبل. كان كل منا يعيش فى شرنقته الـخاصة، ملتزميْـن بالسلـوك الـمهـذب، والتأدب دائمًا، لكننا لم نعد "معًا" كما كنا من قبل. كان قد انغلــق على نفســه، وحبس نفســه فى أفكاره الـخاصة. ذهب الدفء من عينيه، وحل الصمت محل الضحك فى الكهف. لم يصرِّحْ بذلك قط، فلم يكن بحاجة إلى التصريح، لكننى عرفت أنه يفضل الآن أن يرسم وحده، وأن يصيد السمك وحده، وأن يكون وحيدًا.

وهكذا كنت أقوم كل يوم بالتـجول فى الـجزيرة مع ستلا، وأنا أرجو أن أجده عندما أعود وقد صفح عنى، وأن نعود أصدقاء مثلما كنا. ولكنه كان دائمًا يحافظ على الـمسافة التى تفصـل بينـنـا. وحـزنت حـزنًا عميـقًا على صـداقتى الضائعة. وأذكر أننى كنت كثيرًا ما أذهب فى تلك الفتـــرة إلى طـرف الـجزيرة الآخـر، إلى تل الـمراقبة، وهناك أجلـس زمنًا طويلاً، ولم أعد أرقب مرور السفن بالـجزيرة، بل كنت أُجَرِّبُ بصوت عالٍ ما أقدمه له من تفسير أو إيضاح لـما فعلت. ولكننى مهما حاولتُ وجَرَّبْت، لم أكن أستطيع أن أقنع حتى نفسى أن ما فعلتُه كان يـمثل شيئًا آخر سوى

الـخيانة. والذى حدث آخر الأمر، على أية حال، هو أن كنسوكى نفسه هو الذى شرح الأمر لى.

كنا قد أوينا إلى الفراش لتوّنا ذات ليلة عندما جاءت السعـلاة تومـوداكى إلى باب الكهــف وجلست القرفصاء عنده. كانت قد فعلت ذلك مرة أو مرتين قبل ذلك فى الآونة الأخيرة، وكانت تـجلس دقائق معدودة وحسب، وتتطلع إلينا ثم تـمضى إلى حال سبيلها. وسمعتُ صوت كنسوكى فى الظلام يقول: "إنها تفتقد كيكانبو من جديد" ثم أضاف: "إنها دائمًا ما تفتقـد صغيـرها. كيكانبـو طفـل شريـر جـدًّا. كثيرًا ما يهـرب، ويجعـل تومـوداكى أمًّا حزينـة جـدًّا" . وصَفَّقَ بيديه ليصرفها صائحًا، ثم هتف: "كيكانبو ليس هنا يا توموداكى. ليس هنا أقول" . ولكن تومـوداكى ظلت فى مكانهـا. وأظـن أنها كانت تريد التسرية عن نفسها أكثـر من أى شىء آخر. وكنت قد لاحظت من قبل أن السعالى كانت كثيرًا ما تأتى إلى كنسوكى عندما تكون قلقة أو خائفة، لا لشىء إلا للشعـور بالاطمئنان إلى جـواره. وبعد فترة انْسَلَّتْ توموداكى خِفْيَةً فى جُنْح الليل وتركَتْنا وَحْدَنا من جديد، يفصلنا صخب الغابة والصمت.

وفجأة خرق صوتُ كنسوكى الصمت، قائلاً: "عنـدى أفكار كثيرة. هل نـِمْتَ يا ميكاسان؟" لم يكـن قد نادانى باسمى أسابيع متوالية، منذ حادثة زجاجة الكوكاكولا.

قلت له: "لا".

فقال: "رائع. أريد أن أقول كلامًا كثيًرا. فاستمع. وسوف أتكلم. لدىَّ أفكار كثيرة. عندما أفكر فى توموداكى أفكر أيضًا فى والدتك. أمك أيضًا تفتقد طفلها. تفتقدك أنت. وهذا أمر محزن جدًّا لها. ربما تأتى لتبحث عنك، فلا تجدك. ربما لا تكون أنت هنا عندما تأتى هى. لسوف تظن أنك مُتَّ ولن تعودَ أبدًا. ولكنها تراك فى خاطرها. بل الآن وأنا أتكلم ربما كانت تراك فى ذهنها. أنت دائمًا هناك. أعرف ذلك. فلدىَّ ابنٌ أنا أيضًا. لدىَّ ميشيا. وهو دائمًا فى رأسى. مثل كيمى. لا شك أنهما ماتا، ولكنهما فى رأسى. إنهما فى رأسى إلى الأبد".

وساد الصمت بيننا فترة طويلة لم ينطق فيها بحرف واحد. كنت أظن أنه نام، لكنه عاد للحديث مرة أخرى فقال: "سأقول لك كل ما أفكر فيه يا ميكاسان. هذه أفضل طريقة. إننى أظل فى هذه الجزيرة لأننى أريد أن أمكث فى هذه الجزيرة. لا أريد أن أعود إلى الوطن فى اليابان. لكن الأمر مختلف فى حالتك. فأنت تريد العودة إلى الوطن عبر البحار، وهذا هو الصواب، هذا هو ما يصلح لك. لكنه لا يصلح لى. إنه فى حالتى أمر محزن جدًّا. لقد عشتُ سنواتٍ طويلةً هنا وحدى. وأنا سعيد هنا. ثم أتيتَ أنت. كنتُ أكرهكَ

عندما أتيت أول الأمر. ولكن بعد فترة أصبحتَ مثلَ ابنى. وأظن أننى قد أكون مثل والدك، وأنك مثل ابنى. وسأحزن كثيرًا عندما ترحل. فقد أَحْبَبْتُ الـحديث معك، وأحببتُ الاستـماع إليك. وأحببتُ رنين صوتك عندما تتكلم. وكنتُ أريدك أن تبقى هنا فى هذه الـجزيرة. هل تفهم؟"

وقلت له: "أظن ذلك".

فعاد يقول: "ولكنك فعلتَ شيئًا غايةً فى السوء. نـحن أصدقاء. ولكنك لا تخبرنى بـما تشعر به. لا تقول لى ما تفعله. وليس هذا أمرًا مُشَرِّفًا. وعندما وجدتُ الزجاجة وقرأتُ الكلمات أحسستُ بالـحزن الغامر الشديد. لكننى بعد فترة قصيرة فهمت. أعتقد أنك تريد أن تـمكث معى هنا وأن تعود أيضًا إلى الوطن. وهكذا عندما وجدتَ الزجاجة كتبتَ الرسالة. ولم تخبرْنى بـما تفعل لأنك تعرف أنه يجعلنى حزينًا. هل هذا صحيح؟"

وقلت له: "نعم".

فقال: "أنت صغير جدًّا يا ميكاسان. وأنت ترسم صورًا جيدة، صورًا مـمتازة. مثل هوكوساى. وتنتظرك حياةٌ طويلةٌ حافـلـة. لا تستطيعُ أن تعيـش حياتـك كلها فى هذه الـجزيرة مع رجل عجوز قد يأتيه الـمـوت فى أيَّة لـحظة. وهكذا، جَعَلَتْنى هذه الأفكار أُغَيِّـر رأيى. هل تعــرف ما سنفعلـه

غــدًا؟" ولم ينتظر إجابتى، بل استمــر قائلاً: "سَنَشْرَعُ فى بناء مُسْتَوْقَد لنارٍ جديدة، نار عظيـمة، حتى نكونَ مُسْتعدَّيْن عندما نلمح سفينةً. وعندها تعود إلى وطنك. كما إننا سنفعل شيئًا آخر. سنلعب كرة القدم. أنت وأنا. ما رأيك فى هذا؟".

وقلت: "لا بأس". لم أكن أستطيع أن أقــول أكثــر من ذلك. لقد تـمكن فى تلك اللـحظات القليلة أن يزيح عبء إحساسى بالذنب كله من على كاهلى وأن يـمنحنى سعــادة غامرة، بل أملاً جديدًا مُشْرِقًا بَرَّاقًا.

"لا بأس لا بأس. فلتنــم الآن. لدينا عمل كثير غدًا. وأيضًا كثيــر من كرة القدم".

وفى صباح اليوم التالى بدأنا نقيـم منارًا على قمة التل فوق منزلنا بالكهف. واستخدمنا معظم كومة الـحطب التى كنا جمعناها لـموقد الطهو، وقمنا بتخزين الـخشب الـجاف فى آخر الكهف، بل إنه ضحَّى ببعض أفضل قطع الـخشب التى كانت من الركام الطافى. ولم يكن الأمر يقتضى نقلها لمسافة بعيدة، وهكذا لم يـمر وقت طويل حتى كنا قد جمعنا ما يكفى لإشعال نار ضخمة. وقال كنسوكى إن ذلك يكفى مؤقتًا، وإننا نستطيع أن نـجلب الـمزيد من الغابة، وأن نزيد الـمقدار يوميًّا بالكمية التى نريدها. وقال: "سرعان ما نشعل نارًا هائلة يستطيعون رؤيتها فى أى مكان حتى فى اليابان"

وضحك، ثم أضاف: "نتناول الغداء الآن، وبعدها ننام قليلاً، وبعدها كرة القدم. موافق؟".

وفى عصر ذلك اليوم نفسه استعضنا عن قوائم المرمى بالعِصِىّ التى غرسناها فى الرمل وجعلنا نتناوب دور حارس المرمى واللاعب الذى يصوب الكرة إلى المرمى: كانت الكرة قد فقدت الكثير من الهواء الذى نُفخت به، فلم تكن ترتد حين تضرب الرمل بها خيرًا من ارتدادها من الطين الذى كان يكسو الملعب الذى كنا نلعب فيه فى الوطن، لكن ذلك لم يكن مُهمًّا. قد يكون كنسوكى شيخًا يتوكأ على عصًا، وقد يكون قد بلغ أرذل العمر، لكنه كان يجيد تصويب الكرة إلى المرمى وإحراز أهداف لم أستطع صَدَّهَا، المرة بعد المرة.

ما أروع الوقت الذى قضيناه فى اللعب! لم يكن أَيُّنَا يريد له أن ينتهى. كان حشدٌ من قرود السعالى يشاهدنا فى حيرة، وكانت ستلا تتدخل وتجرى وراء الكرة كلما أحرز أحدنا هدفًا، حتى هبط الظلام فأرغمنا على العودة آخر الأمر، صاعديْن التل، وكان الإرهاق قد بلغ منا حدًّا لم يُتِحْ لنا سوى أن نجرع قدرًا كبيرًا من الماء، ونأكل موزة أو موزتين، قبل أن نأوى إلى حصير النوم.

ولم يتأتَّ لى سوى بعد المصالحة أن أعرف كنسوكى خيرًا مما كنت أعرفه فى يوم من الأيام. حديثه بالإنجليزية كان يزداد طلاقةً باطِّراد، وكان من الواضح أنه أصبح يحب التحدث بالإنجليزية. ولسبب لا أعرفه كان أشد سعادة بالحديث معى دائمًا ونحن نصيد السمك فى زورقه ذى المساند. لم نكن نقوم بهذه الرحلات للصيد كثيرًا، ولم نكن نقوم بها إلا حين تقل الأسماك فى المياه الضحلة فَنُضْطَرُّ إلى صيد السمك الكبير لتدخينه وحفظه.

كانت القصص تتدفق من فمه ونحن فى البحر. فتحدث كثيرًا عن طفولته فى اليابان، وعن أخته التوأم، وكيف كان يندم على دفعها من فوق شجرة الكَرَز فى حديقة منزلهما، وكيف كسرت ذراعها، وكيف تُذَكِّرُه شجرة الكرز التى يرسمها بأخته دائمًا. ولكنها كانت هى الأخرى فى نجاساكى عندما أُلْقِيَت القنبلة. وأذكر أنه ذكر لى أيضًا عنوان المنزل الذى كان يقيم فيه أثناء دراسته فى لندن - رقم 22 شارع كلانريكارد جاردنز، ولم أَنْسَ ذلك العنوان قط. وقال إنه ذهب إلى ملعب كرة القدم ليشاهد فريق تشيلسى، وبعدها جلس بجانب تمثال أسد فى ميدان ترافالجار (الطرف الأغَرّ) فأمره شرطىٌّ بالرحيل.

ولكن أكثر من كان يتحدث عنه كانت زوجته كيـمى وابنه ميشيا، وكان يقول كم كان يود أن يرى ميشيا وقد أصبح رجـلاً. وقال إنـه لولا القنبلـة التى أُلقيـت على نـجاساكى لأصبح ميشيا فى الـخمسين من عمره، ولكانت كيـمى فى مثل سِـنِّه الآن أى فى الـخامسة والسبعين. وكنت نادرًا ما أقاطعه عندما يكون على هذه الـحال. حاولت التسرية عنه مرة فقلت: "القنابل لا تقتل الـجميع. وربـما كانا الآن على قيد الـحياة. من يدرى. تستطيع أن تعرف. يـمكنك أن تعود". ونظر إلـىّ نظرة غريبة كأنـما لم يكن قد خطر له ذلك الاحتـمال من قبل قـط، وفى هذه السنين كلهـا. واستأنفتُ حـديثى قائلاً: "ولم لا؟ عندما نرى سفينة ونشعل النار ويأتى من فى السفينة لاصطحابى تستطيع أن تأتى معنا. يـمكنك أن تعود إلى اليابان. لَسْتَ مرغمًا على البقاء هنا".

وفكر فى الأمر برهة، ثم هزّ رأسه قائلاً: "لا! لقد مـاتـا. كانت تلك قنبلة هائلة، قنبلة رهيبة فظيعة. وقال الأمريكيون إن نـجاساكى دُمِّرتْ، كل منزل هُدِم. سمعتهم. أفراد أسرتى ماتوا قطعًا. سأبقى هنا. أنا هنا آمن. سأظل فى جزيرتى".

وكنا فى كل يوم نزيد من الأخشاب التى بنينا الـمنار منها، فغدا الآن هائلاً، بل أضخم من الـمنار الذى كنت أقمته على تل الـمراقبة. وأصبح من عادة كنسوكى فى كل

صباح، وقبل الذهاب إلى البِرْكَةِ للاستحمام، أن يرسلنى إلى قمة التل حاملاً منظـاره الـمقـرب. وكنت دائمًا أفحص الأفق بـمزيج من الرجاء والـخوف. كنت قطعًا أتوق إلى رؤية سفينة، لا شك فى هذا، كنت أتوق إلى العـودة إلى الوطن. ولكننى كنت أخشى فى الوقت نفسه ما يعنيه ذلك. كنت أحس بالاطمئنان والراحة كثيرًا مع كنسوكى. وكانت فكـرة الفراق تـملؤنى بحـزن رهيـب. وعَقَدْتُ العـزم على بـذل قُصَـارى جَهْدى لإقناعه باصطحابى، إذا مرت بنا سفينة أو عندما تأتى سفينة.

كنت أنتهـز كل فرصـة الآن لأحدثـه عن العالـم خارج هذه الـجزيـرة، وكلما تـحدثت ازداد اهتـمامه، فيـما يبدو، بـما أقول. ولـم أكن أشيـر، بطبيعة الـحال، إلى الـحـروب والـمجـاعات والكـوارث. بل كنت أرسم أفضل صـورة استطعـت أن أرسـمهـا لذلك العالـم. كان يجهـل الكثيـر الكثيـر. وكان يُـبْدى دهشته من كل ما أحكيه، من فُـرْن "الـميكروويف" فى مطبخنا، والكمبيوتر وما يستطيع أن يؤديه، وطائرة الكونكورد التى تطير بسـرعة تزيـد على سرعة الصوت، والذين ذهبـوا للقمـر، والأقمـار الصناعيـة. وكان الـحديث عن تلك الأشياء يتطلب الشرح الـمفصَّل - قطعًا. بل إنه لـم يكن يصدق بعضها، فى أول الأمر على الأقل.

وأتـى دوره فى طـرح الأسـئـلـة علـىَّ. وكـان يسـألنى بصفـة خـاصـة عن اليـابان. لكننـى لم أكـن أعــرف الكثير عن اليابان، إلا أننـى كنت أرى فى وطنى إنـجلتـرا عبـارة "صُنِـعَ فى اليـابان" على أشـيـاء كثيـرة، من بينهـا فـرن "الـميكروويف"، وكذلك السـيارات، والآلات الـحاسـبة، ومسجـل الصـوت الاستـريو الـخـاص بوالـدى، وجهـاز تـجفيـف الشعـر عند والدتى.

وضحك قائلاً: "أنا شخـص "صنـع فى اليابـان"! آلـة قديـمة جدًّا، لكنها لا تزال صالـحة، لا تزال بالغة القوة".

ورغم محاولاتى الدائبة للنبش فى ذاكرتى، لم أجد بعد فترة ما أقوله له عن اليابان، لكنه كان ما يفتأ يسأل: "أنت واثق أنه لا توجد حرب فى اليابان هذه الأيام؟" كنت واثقًا، إلى حد كبير، أنه لا توجد حرب فيها وقلت له ذلك. وعاد يسـأل: "وهل عَمَّروا نـجاساكى بعد القنبـلة؟" وقلت له إن هذا صحيح، راجيًا أن أكُون على صواب. لم يكن فى طوقى سـوى بـث الاطمئنان فى قلبه قدر ما استطعت، إلى جانب سـرد القليل الذى أعرفه وتكراره الـمـرة بعد الـمـرة. وكان فيـما يبدو يتلذَّذُ بسمـاع ذلك، مثل طفـل يستـمتـع بقصة خيالية مفضلة.

وذات يوم بعد أن أَفَضْتُ فى الحديث من جديد عن نوعية الصوت المدهشة لجهاز التسجيل "الاستريو" الذى يملكه والدى، وهو من ماركة "سونى"، والذى يجعل المنزل كله يرتجُّ بذبذبات الصوت، قال بصوت خافت هادئ: "ربما أعود يومًا ما قبل أن أموت إلى وطنى. ربما أعود يومًا ما إلى اليابان. ربما". لم أكن واثقًا أنه كان يعنى ما يقول، ولكن قوله كان يعنى أنه ينظر فى الأمر على الأقل، وهو ما جعلنى أتفاءل. لكننى لم أصدق أن كنسوكى كان جادًّا حقًّا إلا فى ليلة السلاحف البحرية.

كنت غارقًا فى النوم عندما أيقظنى، قائلاً: "تعال يا ميكاسان. تعال بسرعة. هيا! تعال معى!"

وسألته: "لماذا؟" لكنه كان قد انطلق. وَعَدَوْتُ خلفه فى ضوء القمر فأدركته فى منتصف الطريق المؤدى إلى البحر. وسألته مرة أخرى: "ماذا نفعل؟ وأين نذهب؟ هل جاءت سفينة؟".

وقال: "سترى فورًا. سترى فى الحال". كانت ستلا تجرى فى أعقابى حتى وصلنا إلى الشاطئ. لم تكن مُغْرَمَةً بالخروج فى الظلام. ونظرتُ حولى فلم أجد شيئًا. كان الشاطئ فيما يبدو مهجورًا خاويًا. وكانت الأمواج

تصطدم بقلق. والقمر يركب متن السحب، وبدا العالـم من حولى كأنـما يـمسك أنفاسه. لم أبصر ما يحدث حتى ركع كنسوكى على ركبتيه فجأة فى الرمال. قائلاً: "إنها صغيرة جدًّا. وليست قويةً جدًّا فى بعض الأحيان. وأحيانًا تأتى الطيور فى الصباح وتأكلها". وهنا شاهدتها.

كنت أظـن أولاً أنهـا سَــرَطَـانَـاتٌ بحـريــة أى كابوريـا، ولكننى كنت مخطئًا. كانت سـلاحف بحرية دقيقة الـحجم، أصغــر مـن الـحَمَسَــة أى سـلـحـفـاة الـمــاء العــذب، وكانت تتسـلـق بعنــاء جـحـورًا فى الرمل ثم تسرع الـخُطَى عَدْوًا على الشاطئ نـحو البحــر. شاهـدت أولاً واحـدة، ومن بعدها أخرى فثالثة، ثم نظـرت إلى الشاطئ فوجدت عشرات منها، بل مئات، وربـما آلاف، وهى تُـهـرَع جميعًا على الرمـال التى يسطـع عليها ضوء القمر وتنزل البحر. كان كل مكان فى الشاطئ ينبض بحركتها. واقْتَرَبتْ ستلا من إحداها تتشمـمها فنهرتها، فتثاءبتْ ونظرت ببراءة إلى السماء تتطلع إلى القمر.

ورأيت أن إحداها قد انقلبت على ظهرها فى قاع أحد الـجحور، وأرجلها تركل الهواء فى هياج. ومد كنسوكى يده فالتقطها برفق ووضعها على أقدامها من جـديد فوق الرمل،

قائلاً: "اذهبى إلى البحر أيتها السلحفاة الصغيرة. ولتعيشى فيه الآن. وسرعان ما تكبرين وتصبحين سلحفاة بحرية جميلة. وربما تعودين يومًا ما وتقابليننى". وجلس على عَجُزِه وهو يرقبها تجرى. والتفت إلىّ قائلاً: "هل تعرف ماذا تفعل هذه يا ميكا؟ إن السلاحف الأمَّهات تضع بَيْضَها فى هذا المكان. وفى ليلة معينة من كل عام، ودائمًا عندما يسطع نور البدر، تولد السلاحف الصغيرة. والطريق إلى البحر طويل. ويموت كثير منها. ولهذا أسهر عليها دائمًا. أساعدها. وأطارد الطيور حتى لا تأكل السلاحف الصغيرة. وبعد أعوامٍ كثيرة، عندما تكبر السلاحف، تعود إلى هنا لِتَضَعَ البَيْضَ من جديد. قصة حقيقية يا ميكاسان".

وسَهِرْنا طول الليل نرعى المواليد الكثيرة، ونرقب صغار السلاحف وهى تجرى إلى البحر حتى تنجو. وقمنا معًا بالمرور على الشاطئ، وكنا نمد أيدينا فى كل جُحْرٍ نجده لنرى إن كان فيه سلاحفُ أخرى لا تستطيع الخروجَ أو جَنَحَتْ فَتَعَثَّرَتْ. ووجدنا عددًا منها لا تقوى على المسير وإتمام الرحلة، فحملناها إلى البحر بأنفسنا. وبدا أن البحر يبعث فيها الحياة، إذ كانت تنطلق سابحة دون حاجة إلى درس فى السباحة. وساعَدْنا عشرات

منهـا كانت مقلـوبـة على الوقوف على أقدامها، ورافقناها حتى وَصَلَتْ إلى البحر سالـمة.

وعندما بزغ الفجر وانقضَّت الطيور تريد أن تلتهمها، كنا جاهزين لطردها وإبعادها. كما شاركت ستلا فى الطِّراد نابحـةً إيـــاهـــا، وكنا نـجـرى نـحـوهـــا صـارخـين مُلَوِّحـين بأيدينا أو كنا نقذفها بالـحصـــى. لم يكن نـجاحُنا كاملاً؛ ولكن مـعـظـم الســلاحــف نـجـحــت فى الوصـــول إلى البحـــر. ولكنها لـم تكن آمنة تـمامًا فى الـمـاء. فعلى الرغم من جهودنا الـمستـميتة، تـمكنت الطيور من التقاط عدد كبير منها بـمناقيرها وطارت بها.

ومـا إن انتصـف النهــار حتـى انتهـى كـل شـىء. كان كنسوكى يقف على الشط وقد غمر الـماء عقبيه، وهو يرقب آخر السلاحف وهى تسبح بعيدًا عنا. وضع يده على كتفى قائلاً: "إنها بالغة الضآلة يا ميكاسان، ولكنها شجاعة جدًّا. إنها أشجع منى. إنها لا تعـرف ما سـوف تـجده فى البحـر، ولا ما سوف يحدث لها، ولكنها تخوضه مهما يكن الأمر. شجاعة بالغة. ربـما تعلمتُ منها درسًا نافعًا. لقد استقر رأيى الآن. عندما تأتى سفينة يومًا ما، ونشعل النار، ويعثرون علينا، فسوف أرحل. سأرحل مثل السلاحف البحرية. سأذهب معك. سأعود إلى

وطنى فى اليابان. ربـما وجدتُ كيـمى، وربـما وجدتُ ميشيا.
سوف أعرف الـحقيقة. سأذهبُ معك يا ميكاسان" .





الفصل العاشر

وصول القَتَلة

بعد ذلك بوقت قصير هطلت الأمطار وأرغمتنا أن نحتمى أيامًا متوالية فى منزلنا بالكهف. وتحولت مسارب الغابة إلى سيول، وأصبحت الغابة مستنقعًا. كنت أتوق إلى عواء قرود الجيبون، بدلاً من هدير المطر المنهمر على الأشجار

خـارج الكهف. لـم يكن الـمطـر يهطـل فى نوبـات متقطعة كما كان عليه الـحال فى الوطن، بل باستـمرار ودون توقف. وانتابنى القلق على الـمنار الذى غدا مشبعًا بالـماء ويزداد بَلَلُهُ مع كل يوم يـمر. كيف يتسنى له أن يجف فى يوم من الأيام؟ ولكن كنسوكى كان يبدى الصبر والـجَلَدَ إزاء ذلك كله. كان يقــول لى: "سوف ينقطع الـمطــر حين ينقطـع. لا تستطيع أن توقف هطوله بأن تريد له ذلك. أضف إلى ذلك أن الـمطر مفيد نافع. فهو يساعد الثمار على النـمو، ويحافظ على تدفق الـجدول، وعلى حياة القرود، وحياتك أيضًا وحياتى أنا".

كنت أندفع بأقصى سرعة كل صباح إلى قمة التل ومعى الـمنظار الـمقرب، وإن كنت لا أدرى سببًا لذلك ولا أرى له جدوى، فأحيانًا كان الـمطر ينهمر بغزارة إلى الـحد الذى لم أكن أستطيع معه أن أرى البحر على الإطلاق.

كنا أحيانًا ننطلقُ مسرعيْـن إلى الغابة لنجمع كمية من الفاكهة اللازمة لطعامنا. كانت الغابة تزخر بأنواع النبق، وكان كنسوكى يصر على قطفها، فلم يكن يكترث بالبلل الشديد مثلمـا كنـت أكتـرث. كنا نأكل بعضها، ولكن كنسوكى كان يستـخـدم معظمها فى إعـداد الـخل، ويحفظ

الباقى فى زجاجات خاصة مع عسل النحل والماء. وكان يقول، إنها محفوظة "لوقت الحاجة الماسَّة، صحيح؟" ويضحك (كان يحب "تجربة" التعابير الجديدة التى تعلمها). كنا نأكل الكثير من السمك المُدَخَّن، وكان فيما يبدو لديه مخزونٌ كافٍ دائمًا بصفة احتياطية. كان يجعلنى أشعر بالعطش الشديد، لكننى لم أكن أضيق به قط.

وأنا أتذكر الموسم المطير بسبب انكبابنا على الرسم فيه أكثر من أى سبب آخر. كنا نقوم بالرسم معًا ساعات متوالية - حتى يَنْفَدَ حبر الأخطبوط. وكان كنسوكى يميل هذه الأيام إلى الرسم من الذاكرة أكثر من الرسم من الطبيعة، فكان يرسم منزله فى نجاساكى، وعدة لوحات لزوجته كيمى وابنه ميشيا واقفين معًا، دائمًا تحت شجرة الكرز. ولاحظت أنه يترك الوجه دائمًا دون تحديد أى ملامح. وقد شرح لى ذلك ذات يوم (وكانت طلاقةُ حديثه بالإنجليزية تزيد باطِّراد).

قال لى: "أنا أتذكر من هما. وأذكر أين هما. وأستطيع أن أسمعهما فى رأسى، لكننى لا أستطيع أن أراهما".

وقضيت أيامًا متوالية فى إحكام محاولتى رسم صورة سعلاة. كانت تومواكى. كانت كثيرًا ما تقبع عند باب

الكهف ووجهها يفيض بالحب وجسمها يتساقط منه ماء المطر، كأنما كانت تدعونى لرسمها. وهكذا اغتنمت الفرصة كاملة.

كان كنسوكى سعيدًا باللوحة التى رسمتُها إلى حد النشوة، وأغدق علىّ عبارات الإطراء. وقال: "يومًا ما يا ميكاسان سوف تصبح فنانًا عظيمًا، مثل هوكوساى - ربما". وكانت تلك أولَ لوحةٍ على صَدَفَة أرسمها فيحتفظ بها كنسوكى فى صندوقه. وأحسست بالزهو الشديد. وبعد ذلك كان يصر على الاحتفاظ بالكثير من أصدافى المرسومة، وكثيرًا ما كان يُخرجها من الصندوق ويدرسها بعناية، مبينًا لى أوجه النقص، ولكن دائمًا بسماحة. وفى ظل رعايته، وبوحى تشجيعه، كانت كل صورة أرسمها تبدو أكثر إحكامًا، وأقرب إلى ما كنت أريد لها أن تكون.

وذات صباح عادتْ قِرَدَةُ الجيبون تعوى وتوقف المطر. وخرجنا لصيد السمك فى المياه الضحلة، ثم خرجنا إلى البحر العميق أيضًا، وسرعان ما أعدنا ملء مخزوناتنا من السمك المُدَخَّن وحبر الأخطبوط. وعدنا إلى لعب كرة القدم من جديد، وكان المنار فوق قمة التل يجف ماؤه يومًا بعد يوم.

وكنا أينما ذهبنا الآن نأخذ معنا المنظار المقرب، من باب الاحتياط. وكاد ذلك المنظار يضيع منا ذات يوم عندما سرقه كيكانبو، ولد توموداكى "الشقىّ"، وانطلق يجرى به فى الغابة. كان أشد صغار السعالى صفاقةً وأكثرها ميلاً إلى اللهو واللعب. وعندما أدركناه لم يكن يريد إعادة المنظار. واضطر كنسوكى آخر الأمر إلى رِشْوَته: موزة حمراء فى مقابل منظار مقرب.

لكنه مع مرور الوقت كنا بدأنا نعيش كأنما اعتزمنا البقاء فى الجزيرة إلى الأبد، وهو ما بدأ يُقْلقنى قلقًا عميقًا. كان كنسوكى يقوم بإصلاح زورقه ذى المساند، وإعداد المزيد من الخل، وكان يجمع الأعشاب ويجففها فى الشمس. وكان يبدو أن اهتمامه بترقب وصول أيَّة سفينة يقل باطراد، بل كان يبدو أنه نسى الموضوع برُمَّتِه.

وشعر كنسوكى بقلقى واضطرابى. كان منهمكًا فى إصلاحات زورقه ذات يوم وأنا أستكشف الأفق من خلال المنظار المقرب، إذ لم يبارحنى الأمل قط، حين قال: "تزداد سهولة الأمر عندما تكون عجوزًا مثلى يا ميكاسان".

وسألته: "سهولة ماذا؟"

فقال: "سهولة الانتظار. سوف تأتى سفينة يومًا ما يا ميكاسان. ربما يكون ذلك فى القريب العاجل، وربما لا يكون فى القريب العاجل. لكن السفينة سوف تأتى. يجب ألا نقضى الحياة فى الرجاء دائمًا والانتظار دائمًا. فغاية الحياة أن نحياها". كنت أعرف أنه على صواب، بطبيعة الحال، لكننى لم أكن أستطيع - إلا حينما أستغرق فى الرسم - أن أطمس حقًّا كل تفكير فى الإنقاذ، وكل تفكير فى أمى وأبى.

وَصَحْوتُ ذات صباح وستلا تنبح خارج منزل الكهف. نهضت وخرجت للبحث عنها. لم أستطع فى البداية أن أراها فى أى مكان. وحين وجدتُها كانت تقف عاليًا فوق التل، وكانت تصدر أصواتًا تتراوح بين الزمجرة والنباح، وقد انتصب شعر رقبتها. وسرعان ما أدركْتُ السبب. كانت سفينةً من نوع اليَنْك! سفينة صغيرة فى البحر. وأهرعت نازلاً التل فقابلنى كنسوكى خارجًا من منزل الكهف، وكان يربط حزام سرواله. وهتفت به: "جاءت سفينة! النار! فلنشعل النار!"

وقال كنسوكى: "دعنى أنظر أولاً". ورغم كل احتجاجاتى عاد إلى منزل الكهف لإحضار المنظار

المقرب. وانطلقْتُ أجرى إلى قمة التل من جديد. كانت السفينة قريبةً جدًّا من الشاطئ. ولابد أن يرى من فيها الدُّخَان. كنت واثقًا من ذلك. وكان كنسوكى يصعد التل لمقابلتى ببطء يغيظ. لم يكن يبدو أنه فى عجلة على الإطلاق. وأخذ يحدق فى السفينة من خلال المنظار ويدرسها بعناية، فاستغرق فى ذلك وقتًا طويلاً.

وقلت له: "لابد أن نشعل النار. لابد لابد".

وقبض كنسوكى فجأة على ذراعى، وقال: "إنها نفس السفينة يا ميكاسان. لقد أتى الرجال القتلة. إنهم يقتلون قرود الجيبون ويسرقون أطفالها. لقد عادوا. أنا واثق تمامًا. فأنا لم أنس السفينة. أنا لا أنسى أبدًا. إنهم أناس أشرار جدًّا. لابد أن نذهب بسرعة. لابد أن نجد جميع السعالى. لابد أن نأتى بها جميعًا إلى الكهف. ستكون آمنةً فيه".

لم يستغرق وقتًا طويلاً فى استدعائها. لم يفعل كنسوكى سوى أنه بدأ يغنى ونحن نسير فى الغابة.

وإذا بها تظهر من حيث لا ندرى، كل اثنتين معًا، وكل ثلاثٍ، حتى اجتمع خمس عشرة، لم تحضر أربع منها، فتوغلنا إلى مسافات أبعد فى الغابة للعثور عليها، وكنسوكى يغنى طول الوقت. وفجأة أتت ثلاث وهى تصطدم فى سيرها

بالأشجار، وكانت من بينها توموداكى. لم يكن غائبًا سوى الصغير كيكانبو.

ووقف كنسوكى فى باحة مكشوفة فى الغابة، تحيط به السعالى، وشرع يغنى لكيكانبو المرة بعد المرة، ولكن الصغير لم يأتِ. ثم سَمِعْنَا صوتَ تشغيلِ محركٍ، فى مكان ما بالبحر، محرك مثبت خارج السفينة. وعاد كنسوكى للغناء بصوت أعلى، وبنبرات أشد إلحاحًا. وأصخنا السمع عسى أن يُصْدرَ كيكانبو صوتًا، وبحثنا عنه، وناديناه.

وقال كنسوكى أخيرًا: "لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك. سأسير فى الأمام وتسير يا ميكاسان فى الخلف. أحضر السعالى الأخيرة معك. هيا. بسرعة". وانطلق عند ذلك، سالكًا المسرب وسط الغابة، وهو يقود أحد السعالى بيده، ولايزال يغنى. وأذكر أننى خطرت لى، ونحن نسير خلفه، صورة عازف المزمار الأسطورى الذى سحر الأطفال بموسيقاه فاتبعوه حتى اختفوا فى كهف فى جانب الجبل.

أما أنا فكانت مهمتى محددة فى آخر الحشد. كانت بعض الصغار تحب أن تلعب لعبة "الاستغماية" أكثر من اهتمامها بالسير وراء الكبار. واضطررت فى النهاية إلى أن

التقط اثنتين منها وأحملهما، كل واحدة فى ذراع. كان وزنها أكبر كثيرًا مما يدل عليه منظرها، وظللت ألقى النظرات خلفى، من فوق كتفى، عسى أن أرى كيكانبو، وأناديه ولكنه لم يحضر رغم كل ذلك.

وتوقف صوت محرك السفينة. وسمعت بعض الأصوات. كانت عالية، أصوات رجال، وضحكات. كنت الآن أجرى، والصغيرتان متعلقتان برقبتى. وكانت الغابة ترتجُّ بأصوات النعيب والعواء فى انزعاج فى كل مكان حولى.

وعندما وصلت إلى الكهف سمعت صوت أولى الطلقات التى تَرَدَّدَ صداها فى الفضاء. وهَبَّ كل طائر وكل خُفَّاش فى الغابة طائرًا، حتى اسْوَدَّ لون السماء التى امتلأت بصرخاتها الحادة. وحشدنا السعالى معًا فى آخر الكهف، وانكمشنا فى الظلام معها، وأصوات طلقات الرصاص لا تنقطع.

كانت توموداكى أشد السعالى قلقًا واضطرابًا، لكنها جميعًا فى حاجة إلى التسرية وبَثِّ الاطمئنان فى قلوبها دائمًا، وهو ما كان كنسوكى يقوم به، إذ لم يتوقَّفْ عن الغناء لها طيلة هذا الكابوس الرهيب.

كان الصيادون قد اقتربوا، بل اقتربوا اقترابًا شديدًا، وهم يطلقون النار ويصيحون. وأغلقت عينىَّ ودعوت الله. وكانت

السعالى تئن بصوت مرتفع كأنـما تغنى مع كنسوكى. وكانت ستـلا طول الوقت ترقـد عنـد قدميَّ، وفى حلقها زمجـرة مستـمرة. وكنت أقبض على غضـون عنقها طول الوقـت، تـحسُّبًا للمفاجآت. وكانت صغـار السعـالـى تدفـن رءُوسها فى جسمى حيثمـا استطـاعـت، تـحت ذراعـيَّ، وتـحـت ركبتيَّ، وتتشَبَّثُ بى.

كانت الطلقاتُ تُدَوِّى الآن على مَقْرُبَةٍ شديدةٍ منا، تَشُقُّ الهواء ويُرْجِعُ الكهفُ أصداءها. وسمعتُ صيحاتِ انتصاراتٍ بعيدةً. وكنت أعرف خير معرفة ما لابد أن يعنيه ذلك.

وابتعد موقع الصيد بعد ذلك. لم نعد نسمع أية أصوات، باستثناء الطلقـة العارضـة. ثم ساد الصمت. سكتت الغابة كلها. ومكثنا حيث كنا ساعات طويلة. كنت أريد أن أغامر بالـخروج لأرى إن كانوا قد رحلوا، ولكن كنسوكى رفض. كان يغنى طول الوقت، وظلت السعالى رابضة معًا حولنا، حتى سمعنا صوت تشغيل محرك القارب. ومع ذلك، فقد جعلنى كنسوكى أنتظر فترة أخرى. وعندما خرجنا أخيرًا كانت السفينة قد أبحرت وابتعدت كثيرًا عن الشاطئ.

وبحثنا فى الـجزيرة عن كيكانبو، وغنينا له، وناديناه، لكننا لم نلمح له أثرًا. واستولى على كنسوكى يأس عميق. لم يكن

يُعَزِّيه شيء. فانطلق وحده فتركته يذهب. وبعد قليل مررت به وقد انحنى على جُثَّتَيْن من جُثَث قرود الجيبون، وكانتا من الأمَّهات. لم يكن يبكى آنذاك، لكنه كان قد بكى قبل أن أصل. كانت عيناه يغمرهما الإحساس بالأذى والحيرة. وحفرنا حفرة فى الأرض الرخوة على حافة الغابة ودَفَنَّاهما. لم تبق لدىَّ كلماتٌ أقولها، ولم تبق لدى كنسوكى أغانٍ يغنيها.

كنا نسير فى طريق العودة الحزين على الشاطئ حين فوجئنا بالصغير كيكانبو خارجًا من مكمنه: أقبل فى شبه هجوم علينا، وهو ينثرُ الرمل علينا ثم قفز فوق ركبة كنسوكى والتفَّ برقبته. كانت لحظة سعيدة، لحظة رائعة.

وفى تلك الليلة غنى كنسوكى معى أغنية "عشر زجاجات خضراء" المرة تلو المرة، بصوت بالغ الارتفاع، ونحن نتناول حساء السمك. ولابد أن ذلك كان يمثل رثاءً من نوع ما لقردتَى الجيبون القتيلتين، وأنشودة فرح فى نفس الوقت بالعثور على كيكانبو. وبدا أن الغابة خارج الكهف ترجع أصداء غنائنا.

لكنه اتضح لى فى الأسابيع التالية أن كنسوكى كان مستغرقًا فى تأمل الأحداث الرهيبة التى وقعت فى ذلك

اليوم. وانطلق يصنع قفصًا من الـخَيْـزُرَان الـمتين فى آخر الكهف كَيْما يُدْخل فيه السعالى فتكون أكثر أَمْنًا إذا حدث وعاد القتلةُ يومًا ما. وظل يتحدث فى الـموضوع مرارًا وتكرارًا، فكان يقول إنه كان ينبغى أن يصنع القفص من قبل، ويقول إنه لم يكن ليصفح عن نفسه لو كان الرجال قد أسروا كيكانبو، وكم يتـمنى لو كانت قرود الـجيبون تستـجيب لغنائه وتأتى حتى يستطيع إنقاذها كذلك. وقطعنا بعض فروع الأشجار وبعض النباتات من الغابة ووضعناها خارج مدخل الكهف، حتى نستطيع إقامتها ستارًا يخفيه عن العيون.

وأصبح بالغ القلق، بالغ الاضطراب، وكان كثيرًا ما يرسلنى إلى قمـة التـل ومعى الـمنظـار الـمقرب حتى أرى إن كانت السفينة اليَنْك قد عادت. لكنه مع مرور الوقت، ومع انحسار التهديد بخطر وشيك، عاد له طبعه الأول. ومع ذلك، كنت أحس أنه دائمًا على حذر، دائمًا متوتر قليلاً.

ولما كان يحتفظ الآن بعدد كبير من لوحاتى، فقد اكتشفنا أن ما لدينا من صدفات تصلـح للرسم عليها يوشك أن ينفد. وهكذا انطلقنا مبكرًا ذات صباح فى رحلة للبحث عن الـمزيد منها. وفحصنا الشاطئ كله بدقة، وقد انحنى رأسانا، ونحن نسير بجوار بعضنا البعض، لا تفصلنا إلا مسافة قصيرة. وكان العمل بجمع الصدفات دائمًا ما يتضمن عنصر

الـمنافسة: مَنْ أول من يعثر على صدفة صالـحة، ومن يعثر على أكبر صدفة، وأكثر الصدفات كمالاً. لم نكن قد قضينا وقتًا طويلاً فى البحث، ولم يكن أىٌّ منا قد عثر على صدفة واحدة، عندما أدركْتُ فجأة أنه توقف عن الـمسير.

وهمـس قـائلاً: "ميكاسـان"؛ مشيـرًا إلى البحـر بعصـاه. كان فى البحـر شىءٌ مـا، شىء أبيـض، لكنه كان محـدد الـملامح، محـدد الشكـل إلى الدرجة التى يستحيل معها أن يكون سحابة.

كنت قد تركت الـمنظار الـمقرب فى الكهف. فانطلقْتُ أعدو، وستلا تنبحنى طول الطريق، عائدًا إلى منزل الكهف، فالتقطْتُ الـمنظار الـمقرب واندفعت حتى وصلت إلى قمة التل. شراع! بل شراعان! شراعان أبيضان. ونزلت التل قفزًا، فدخلت الكهف والتقطت عصًا مشتعلة من النار، وعندما وَصَلْتُ إلى قمة التل كان كنسوكى قد سبقنى إليه. وأخذ الـمنظار الـمقرب من يدى ونظر بنفسه.

وسألته: "هل أشعل النار؟ هل أشعلها؟"

وقال: "لا بأس يا ميكاسان. وهو كذلك".

ودَسَسْتُ العصا الـمشتعلة فى أعماق الـمنار، بين أوراق الشجـر والأغصـان الـجـافة فى قلـب الـمنار، واشتعلت

فيه النار على الفور تقريبًا، وسرعان ما سَمِعْتُ أزيزَ ألسنةِ اللَّهَبِ وهى تضطرم فى الخشب، بل وتَكاد تَلْمَسُنا أَطْرَافُها حيثما وَجَّهَتْها الرياح. وتراجعنا من شدة اللَّظَى والحرارة المفاجئة. وأحسست بخيبة الأمل لكثرة ألسنة اللهب، إذ كنت أنشد الدُّخَان، لا النار. كنت أريد سحابات دُخَانٍ تصعد فى الجو.

وقال كنسوكى: "لا تقلق يا ميكاسان. سوف يشاهدون هذا قطعًا. سترى".

وتناوبنا استعمال المنظار المقرب. ولكن اليخت لم يستدر. لم يشاهدوا النار. وكان الدخان قد بدأ يمور صاعدًا فى السماء. وباستماتة ألقيتُ المزيد والمزيد من الخشب فى النار، حتى أصبحت جحيمًا هادرًا من ألسنة اللهب والدخان الكثيف.

وكنت قد ألقيت آخر الخشب الذى لدينا تقريبًا فى النار حين قال كنسوكى فجأة: "ميكاسان! إنها قادمة. أظن أن السفينة قادمة".

وأعطانى المنظار المقرب. كان اليخت يستدير. كان يستدير قطعًا، وإن كنت لم أستطع أن أتبيَّن إن كان يستدير باتجاهنا أو بعيدًا عنا. وقلت له: "لا أدرى. لست واثقًا".

وأخذ منى الـمنظار الـمقرب وقال: "أؤكد لك يا ميكاسان أن السفينة قادمة نـحونا. لقد رأونا. واثق كل الثقة. إنها قادمة إلى هذه الـجزيرة".

وبعد لـحظات عندما ملأت الريح الشراعين، تأكدت أنه على حـق. وتبادلنا الأحضـان على قمـة التل بجانب الـمنار الـمتقد. وبدأت أتواثب فى مكانى كالـمجنون، وغَضِبَتْ ستلا منى. وكنت كلما نظرتُ فى الـمنظار الـمقرب الآن أرى اليخت يزداد اقترابًا.

وقلت: "إنه يخت كبير. لا أستطيع أن أرى رايته. لكن جسم السفينة أزرق أدكن، مثل پيجى سو". وفى تلك اللـحظة فقط، لـحظة النطق باسم السفينة عاليًا، بدأت أمل أن تكون هى. وتدريجيًّا تـحوَّل الأمل إلى اعتقاد، وتـحول الاعتقاد إلى يقين. ورأيت قبعة زرقـاء، قبعـة والدتى الزرقاء. إنهما هما! إنهما همـا! وهتفـت وأنا مازلت أنظـر من خـلال الـمنظار الـمقـرب: "كنسوكى! كنسوكى! إنها السفينة پيجى سو. إنها هى. لقد عادا من أجلى. لقد عادا". ولكن كنسوكى لـم يـرد. وعندما نظرت حولى اكتشفت أنه غير موجود.

وجدته جالسًا فى مدخل منزل الكهف، وكرة القدم فى حجره. ورفع بصره إلـىَّ، وكنت أعرف من نظرات عينيه ما كان يوشك أن يقوله لى.

وقف ووضع يديه على كتفى، وصوَّب إلى عينىَّ نظرة عميقة، وقال: "أَصْغِ إلىَّ الآن جيدًا يا ميكاسان. إننى عجوز جدًّا لا أستطيع التوافق مع ذلك العالم الجديد الذى تحكى عنه. إنه عالم مثير جدًّا، لكنه ليس عالمى. عالمى كان اليابان، من زمن بعيد جدًّا. والآن أصبح عالمى هنا. لقد فكرتُ فى الأمر طويلاً. إذا كانت كيمى على قيد الحياة، وكذلك ميشيا، فسوف يظنان أننى مت منذ زمن بعيد. سأصبح مثل شبح يعود إلى المنزل. لم أعد نفس الشخص. ولم يعودا ما كانا عليه. أضف إلى ذلك أن لى أسرةً هنا. أسرة السعالى. لربما عاد القتلة من جديد. من الذى يرعاها إذن؟ لا! سوف أبقى فى جزيرتى. هذا مكانى. هذه مملكة كنسوكى. لابد أن يبقى الإمبراطور فى مملكته، ويرعى شعبه. الإمبراطور لا يهرب. ليس أمرًا مشرِّفًا".

كنت أُدْرِكُ أنه لا جدوى من التوسل أو المناقشة أو الاحتجاج. ووضع جبهته فوق جبهتى وتركنى أبكى. واستمر قائلاً: "اذهبْ أنت الآن. ولكن قبل أن تذهبَ، لابد أن تَعِدَنى بثلاثة أشياء. أولاً: ألَّا تَهْجُرَ الرسم فى أى يوم من أيام حياتك، حتى تصبح فنانًا عظيمًا مثل هوكوساى. وثانيًا: أن تفكِّر فىَّ أحيانًا، بل أحيانًا كثيرة، بعد

أن تعـود إلى وطنك فى إنـجـلترا. إذا رأيت البـدر الـمنيـر فى السماء فتذكَّرْنى، وسوف أفعلُ مثل هذا هنا. وهكذا لن ينسى أحدُنا الآخرَ أبدًا. والوعد الأخير بالغ الأهمية لى. من بالغ الأهمية ألاَّ تقول شيئًا عن هذا، ولا عَنِّى. لقد جئتَ إلى هنا وَحْدَكَ. ومكثتَ وَحْدَكَ فى هذا الـمكان. مفهوم؟ لستُ موجـودًا هنا. أما بعد عشر سنوات، فَلَكَ أن تقولَ ما تشـاء. فلن يبقـى عندئذ منى سوى العظـام. ولـن يُهِـمَّ ما يكون عنـدها. لا أريـد لأحـد أن يأتى للبحث عنى. فأنا أقيـم هنا وأعيش حيـاة السلم. لا أريد بشرًا. فالبشر عندما يأتون ينتهى السلم. مفهوم؟ هل ستكتـمُ سِرِّى يا ميكا؟ هل تَعِدُنى بذلك؟"

وقلت له: "أَعِـدُكَ".

وابتسم وأعطـانى كرة القدم، قائـلاً: "خذ كرة القدم. أنت ماهر فى لعب الكرة، ولكنك أمهر كثيرًا فى الرسم. اذهب أنت الآن". ثم وضع ذراعه على كتفى واصطحبنى خارج الكهـف، وقال: "اذهـب". ومشـيتُ خطـوات معـدودةً ثم التفتُّ إليـه. كان لايـزال واقفًا فى مدخـل الكـهـف فقال: "اذهب الآن من فضـلك" ثم انحنى لى. وانحنيتُ له وقال: "*سايونارا* يا ميكاسان! لقد تشرفت بـمعرفتك، أكبر شرف فى حياتى". ولم أجدِ عندى الصوت الذى أجيبه به.

كانت الدموع تغشى بصرى وأنا أجرى فى المسرب. ولم تَأْتِ ستلا على الفور، لكنها أدركتْنى عندما وَصَلْتُ إلى حافة الغابة. وانْطَلَقَتْ تعدو مسرعةً على الشاطئ وهى تنبح السفينة بيجى سو، لكننى ظللتُ مختبئًا فى ظل الأشجار أبكى حتى نَفِدَتْ دموعى. وتابعتُ بعينى بيجى سو وهى تدخل مياه شط الجزيرة، وكان فوقها حقًّا والدتى ووالدى. وكانا قد شاهدا الآن ستلا وجعلا يناديانها. وكانت تنبح نباحًا شديدًا أطار عقلها. وشاهدْتُ مرساة السفينة وهى تهبط.

وهمست "وداعًا يا كنسوكى" وأَخَذْتُ نَفسًا عَميقًا وانطلقت أجرى على الرمل وأنا أُلوِّح بيدى وأصيح.

ونزلتُ أجرى فى المياه الضحلة لملاقاتهما. وجَعَلَتْ أمى تحتضننى وهى تبكى حتى ظننتُ أن عظامى سوف تتكسر. وظلت تقول وتكرر: "ألم أقل لك إننا سنجده؟ ألم أقل لك؟".

وكانت أولى كلمات والدى لى حين رآنى: "مرحبًا أيها القرد".

ظلت والدتى ووالدى يبحثان عنى ما يقرب من عام كامل. ولم يكن أحد على استعداد لمساعدتهما، لأن أحدًا لم يكن ليصدق أننى ما زلت على قيد الحياة، وكان الناس

يقولون لهما إن احتـمال حياته لا يصل حتى إلى واحد فى الـمليون. وقد اعترف والدى فيـما بعد بأنه كان يتصور أننى مت. ولكن والدتى لم تفقد الأمل قط. كنت بالنسبة لها دائمًا على قيد الـحياة، وكانت تقول إننى لابد أن أكون حيًّا، وكانت واثقة من ذلك بقلبها وحسب. وهكذا ظَلَّا يُـبْـحـران من جزيـرة لـجزيـرة، ويواصلان البحث حتى عَثَرَا علىَّ. لـم يكن ذلك بفعل معجزة، بل بفعل الإيـمان.



حاشية الرواية

بعد أربع سنوات من نشر هذا الكتاب تلقيت الرسالة التالية:

عزيزى مايكل:

أكتب هذه الرسالة لأقول لك، بلغتى الإنـجليزية الركيكة، إن اسمى ميشيا أوجاوا. وأنا ابن الدكتور كنسوكى أوجاوا. كنت أتصور حتى قرأت كتابك أن والدى مات فى الـحرب. وقد تُوفِّيت والدتى منذ ثلاث سنوات فقط وكانت لاتزال تعتقد ذلك. وكما تقول فى كتابك، كنا نعيش فى نـجاساكى، ولكنْ حالفنا حُسْنُ الـحظ كثيرًا، إذ كنا ذهبنا إلى الريف لزيارة جَدَّتى والـمكوث عندها عدة أيام قبل سقوط القنبلة، وهكذا كُتبت لنا النجاة.

ليست لدىَّ ذكرياتٌ عن والدى، بل بعض الصور الفوتوغرافية فقط، إلى جانب كتابك. وسوف يسرنى أن أحادث أى شخص عرف والدى مثلك. وليتنا نتقابل يومًا ما. أرجو ذلك.

مع أطيب أمنياتى،

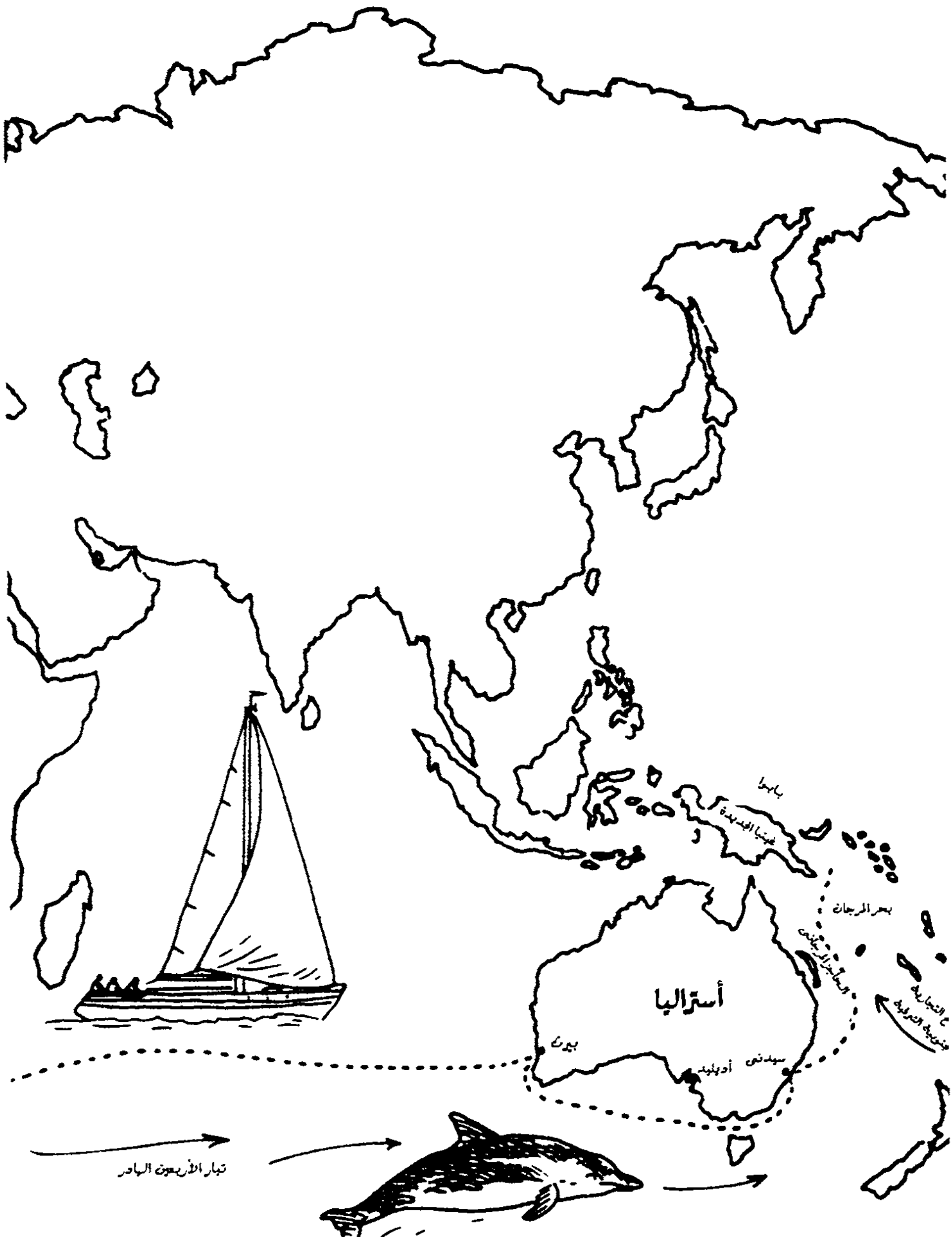
ميشيا أوجاوا.

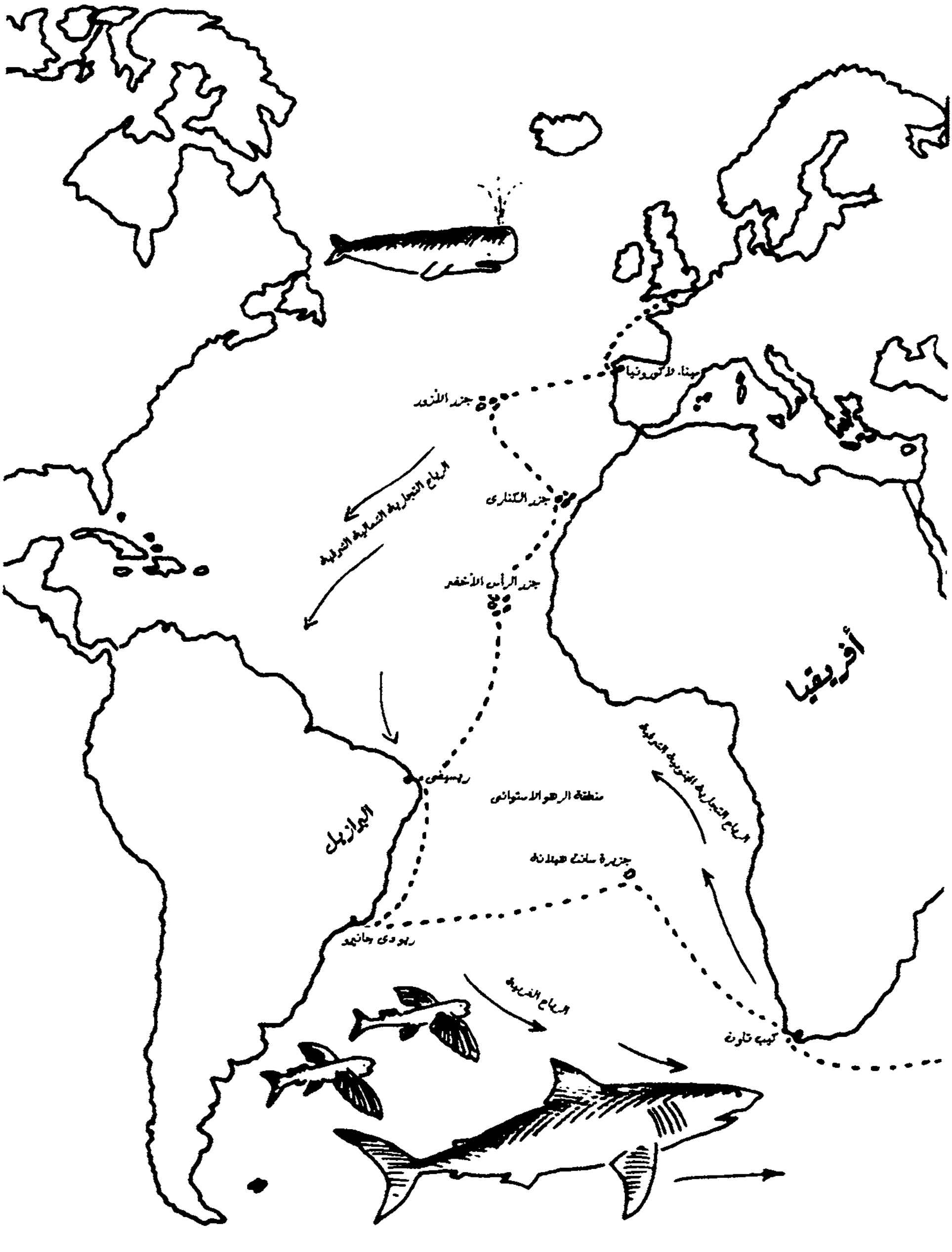
وبعد شهر من تَسلُّم هذه الرسالة ذهبت إلى اليابان، وقابلت ميشيا. إنه يضحك تـمامًا مثلما كان والده يضحك.

ジ・エンド

معجم

あぶない	*أبوناى*	خطـر!
アメリカ人	*أمريكاچين*	شخص أمريكى
だめだ	*داميدا*	مـمنوع
英国人	*إيكوكويين*	شخص إنـجليزى
ごめんなさい	*جوميناساى*	آسف
ジャパン	....	اليابان
きかんぼう	*كيكانبو*	
きみ	*كيـمى*	
道哉（みちや)	*ميشيا*	
長崎	....	نـجاساكى
おやすみなさい	*أوياسومى ماساى*	تصبح على خير
さよなら	*سايونارا*	إلى اللقاء
ともだち	*توموداكى*	
ジ・エンド	....	النهاية
やめろ	*ياميرو*	قف!


بابوا
غينيا الجديدة
بحر المرجان
أستراليا
بيرث
أديليد
سيدني
تيار الأربعين الهادر


ميناء لاكورونيا
جزر الآزور
الرياح التجارية الشمالية الشرقية
جزر الكنارى
جزر الرأس الأخضر
أفريقيا
ريسيف
منطقة الرهو الاستوائى
البرازيل
الرياح التجارية الجنوبية الشرقية
جزيرة سانت هيلانة
ريو دى جانيرو
الرياح الغربية
كيب تاون